

أنشودة المطر

بدر شاكر السياب

أنشودة المطر

أنشودة المطر

تأليف
بدر شاكر السياب



رقم إيداع ٢٠٨٧٨ / ٢٠١٤

تدمك: ٣ ١٧٧ ٧٦٨ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتاح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ + ٢٠٢ فاكس: ٣٥٣٦٥٨٥٣ + ٢٠٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2015 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	غريبٌ على الخليج
١٣	مرحى غيلان
١٧	أغنية في شهر آب
٢١	غارسيا لوركا
٢٣	تعنيم
٢٥	المخبر
٢٩	عرس في القرية
٣٣	مرثية الآلهة
٣٥	من رؤيا فوكاي
٤٣	قافلة الضياع
٤٩	يوم الطغاة الأخير
٥١	إلى جميلة بُوحَيرد
٥٧	رسالة من مقبرة
٦١	في المغرب العربي
٦٧	مرثية جيكور
٧٣	تموز جيكور
٧٧	جيكور والمدينة
٨١	العودة لجيكور
٨٧	رؤيا في عام ١٩٥٦
٩٧	قارئ الدم

أنشودة المطر

١٠١	ثعلب الموت
١٠٣	المبغى
١٠٧	النهر والموت
١١١	المسيح بعد الصلب
١١٥	مدينة السندباد
١٢٣	أنشودة المطر
١٢٩	سربروس في بابل
١٣٣	مدينة بلا مطر
١٣٧	بور سعيد
١٤٥	المومس العمياء
١٦٥	حفار القبور
١٧٧	الأسلحة والأطفال

غريبٌ على الخليج

الريح تلهث بالهجيرة، كالجثام، على الأصيل
وعلى القلوع تظل تُطوى أو تُنشر للرحيل
زحم الخليج بهن مكتدحون جوَّابو بحار
من كل حافٍ نصف عاري
وعلى الرمال، على الخليج
جلس الغريب، يسرح البصر المحيِّر في الخليج
ويهد أعمدة الضياء بما يُصعدُّ من نشيج
أعلى من العباب يهدر رغوهُ ومن الضجيج
صوتٌ تفجر في قرارة نفسي الثكلي عراق
كالمذ يصعد، كالسحابة، كالدُموع إلى العيون
الريخُ تصرخ بي عراق
والموج يُعول بي: عراق، عراق، ليس سوى عراق!
البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون
والبحر دونك يا عراق
بالأمس حين مررتُ بالمقهى، سمعتك يا عراق
وكنت دورة أسطوانته
هي دورة الأفلاك من عُمرى، تكور لي زمانه
في لحظتين من الزمان، وإن تُكُن فقدت مكانه
هي وجه أُمي في الظلام
وصوتها، يتزلقان مع الرؤى حتى أنام

وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهمَّ مع الغروب
فاكتظ بالأشباح تخطف كلَّ طفلٍ لا يتوب
من الدروب

وهي المفلية العجوز وما توشوش عن «حزام»^١
وكيف شَقَّ القبر عنه أمام «عفراء» الجميله
فاحتازها ... إلا جديله
زهراء، أنت أتذكرين

تنورنا الوهاج تزحمه أكف المصطلين؟
وحديث عمّتي الخفيض عن الملوك الغابرين؟
ووراء بابٍ كالقضاء

قد أوصدته على النساء
أيدٍ تُطاع بما تشاء؛ لأنها أيدي رجال
كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال
أفتذكرين؟ أتذكرين؟
سعداء كنا قانعين

بذلك القَصَصِ الحزين لأنه قصص النساء
حشدٌ من الحيوانات والأزمان، كنا عنفوانه
كنا مَدَارِيهِ اللذين ينام بينهما كيانه
أفليس ذاك سوى هباء؟
حلمٌ ودورة أسطوانه؟

إن كان هذا كل ما يبقى فأين هو العزاء؟
أحببت فيك عراقٍ روحي أو حبيبك أنت فيه
يا أنتما، مصباحٍ روحي أنتما — وأتى المساء
والليل أطبق، فلتشعًا في دجاءه فلا أتيه
لو جئت في البلد الغريب إليّ ما كمل اللقاء!

^١ هكذا أصبح اسم الشاعر العاشق عروة بن الحزام عند العامة الذين يروون قصة حبه لعفراء وموته، ويرددون معاني قصيدته بشعرٍ عامي.

الملتقى بك والعراق على يدي هو اللقاء!
شوق يخضُّ دمي إليه، كأن كل دمي اشتهاً
جوع إليه ... كجوع كل دم الغريق إلى الهواء
شوق الجنين إذا اشرب من الظلام إلى الولادة!
إنني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون!
أيخون إنسانٌ بلاده؟
إن خان معنى أن يكون، فكيف يمكن أن يكون؟
الشمس أجمل في بلادي من سواها، والظلامُ
حتى الظلام هناك أجملُ، فهو يحتضن العراق
وا حسرتاه، متى أنام
فأحس أن على الوسادة
من ليك الصيفي طلاً فيه عطرك يا عراق؟
بين القرى المتهيئات خطاي والمدن الغريبة
غنيت تربتك الحبيبة
وحملتُها فأنا المسيح يجر في المنفى صليبه
فسمعتُ وقع خطى الجياع تسير، تدمى من عثار
فتدُرُّ في عيني، منك ومن مناسمها، غبار
ما زلت أضرب، مُترب القدمين أشعث، في الدروب
تحت الشمس الأجنبيَّة
متخافق الأطمار، أبسط بالسؤال يدًا نديَّة
صفراء من ذلٍ وحمى: ذل شحاذٍ غريب
بين العيون الأجنبيَّة
بين احتقارٍ، وانتهازٍ، وازورارٍ أو «خطيَّة»^٢
والموت أهون من «خطيَّة»
من ذلك الإشفاق تعصره العيون الأجنبيَّة

^٢ كلمة إشفاق في اللهجة العراقية - والكويتية - الدارجة.

قطرات ماءٍ ... معدنيّة!
فلتتطفي، يا أنت، يا قطرات، يا دمّ، يا نقود
يا ريح، يا إبراً تخطيط لي الشراع، متى أعود
إلى العراق؟ متى أعود؟
يا لمعة الأمواج رنحهن مجدافٌ يروود
بي الخليج، ويا كواكبه الكبيرة ... يا نقود!

* * *

ليت السفائن لا تقاضي راكبيها عن سفار
أو ليت أن الأرض كالأفق العريض، بلا بحار!
ما زلت أحسب يا نقود، أعدكُنَّ وأستزيّد
ما زلت أنقص، يا نقود، بكُنَّ من مدد اغترابي
ما زلت أوقد بالتماعتكُنَّ نافذتي وبابي
في الضفة الأخرى هناك فحدثيني يا نقود
متى أعود؟ متى أعود؟
أتراه يأزف، قبل موتي، ذلك اليوم السعيد؟
سأفيق في ذاك الصباح، وفي السماء من السحاب
كسّر، وفي النسمات بردٌ مشبع بعطور آب
وأزيح بالثوباء بُقياً من نعاسي كالحجاب
من الحرير، يشفُ عمّاً لا يبين وما يبين
عمّاً نسيت وكدت لا أنسى، وشكُّ في يقين
ويضيء لي، وأنا أمد يدي لألبس من ثيابي
ما كنت أبحث عنه في عتمات نفسي من جواب
لم يملأ الفرخ الخفي شعاب نفسي كالضباب؟
اليوم — واندفق السرور عليّ يفجؤني — أعود!
* * *

وا حسرتاه ... فلن أعود إلى العراق!
وهل يعود
من كان تعوزه النقود؟ وكيف تدخر النقود

غريبٌ على الخليج

وأنت تأكل إذ تجوع؟ وأنت تنفق ما يوجد
به الكرام على الطعام؟
لتبكينَّ على العراق
فما لديك سوى الدموع
وسوى انتظارك، دون جدوى، للرياح وللقلوع!

الكويت ١٩٥٣

مرحى غيلان

«بابا ... بابا»

* * *

ينساب صوتك في الظلام، إليّ، كالمطر الغضير
ينساب من خلل النعاس وأنت ترقد في السرير
من أي رؤيا جاء؟ أي سماوة؟ أي انطلاق؟
وأظل أسبح في رشاشٍ منه، أسبح في عبير
فكأن أودية العراق
فتحت نوافذ من رؤاك على سهادي كل واد
وهبته عشتار الأزاهر والثمار كأنَّ رُوحِي
في تربة الظلماء حبة حنطةٍ وصدّاك ماء
أعلنت بعثي يا سماء
هذا خلودي في الحياة تَكُنْ معناه الدماء

* * *

«بابا» كأن يد المسيح
فيها، كأن جماجم الموتى تبرعم في الضريح
تموز عاد بكل سنبليةٍ تعابث كل ريح

* * *

«بابا ... بابا»

أنا في قرار بويب^١ أرقد، في فراش من رماله
من طينه المعطور والدم من عروقي في زلاله
ينثال كي يهب الحياة لكل أعراق النخيل
أنا بعل أخطر في الجليل
على المياه، أنت في الورقات روحي والثمار
والماء يهمس بالخير، يصل حولي بالمحار
وأنا بويب^٢ أذوب في فرحي وأرقد في قراري

* * *

«بابا ... بابا»

يا سلم الأنغام، أية رغبة هي في قرارك؟
«سيزيف» يرفعها فتسقط للحضيض مع انهيارك
يا سلم الدم والزمان من المياه إلى السماء
غيلان يصعد فيه نحوي، من تراب أبي وجدي
ويدها تلتمسان — ثم — يدي وتحضنان خدي
فأرى ابتدائي في انتهائي
«بابا ... بابا»

جيكور^٢ من شفتيك تولد، من دمائك، في دمائي
فتحيل أعمدة المدينة
أشجار توت في الربيع ومن شوارعها الحزينه
تنفجر الأنهار، أسمع من شوارعها الحزينه
ورق البراعم وهو يكبر أو يمص ندى الصباح
والنسغ في الشجرات يهمس، والسنابل في الرياح
تعد الرحي بطعامهن
كأن أوردة السماء
تتنفس الدم في عروقي والكواكب في دمائي

^١ بويب نهر في قرية الشاعر.

^٢ جيكور قرية الشاعر في جنوب العراق.

مرحى غيلان

يا ظلي الممتد حين أموت، يا ميلاد عمري من جديد
الأرض (يا قفصًا من الدّم والأظافر والحديد
حيث المسيح يظل ليس يموت أو يحيا كظل
كيد بلا عصب، كهيكل ميت، كضحى الجليد
النور والظلماء فيه متهاتان بلا حدود)
عشتار فيها دون بعل
والموت يركض في شوارعها ويهتف يا نيام
هبوا، فقد وُلِدَ الظلام^٢
وأنا المسيح، أنا السلام
والنار تصرخ يا ورود تفتحي، وُلِدَ الربيع
وأنا الفرات، ويا شموع
رشي ضريح البعل بالدم والهباب وبالشحوب
والشمس تُعول في الدروب
بردانةُ أنا والسماء تنوء بالسحب الجليد

* * *

«بابا ... بابا»

من أي شمس جاء دفؤك أي نجم في السماء؟
ينسل للقفص الحديد، فيورق الغد في دمائي؟

^٢ كان كهنة إيزيس ينطلقون، في منتصف ليلة ٢٥/١٢ من كل عام، هاتفين في شوارع الإسكندرية: لقد وضعت العذراء حملها، وقد ولدت الشمس.

أغنية في شهر آب

تموز يموت على الأفق
وتغور دماه مع الشفق
في الكهف المعتم والظلماء
نقالة إسعافٍ سوداء
وكأن الليل قطيع نساء
كحلّ، وعباءات سود
الليل خباء
الليل نهار مسدود

* * *

ناديت مربية الأطفال الزنجية
الليل أتى يا مرجانة
فأضيئي النور وماذا؟ إنني جوعانة
و... نسيت، أما من أغنيّة؟
بم يهذر هذا المذيع؟
في لندن، موسيقى جاز، يا مرجانة
فإليها، إنني فرحانة
والجاز من الدم إيقاع

* * *

تموز يموت ومرجانة
كالغابة تربض بردانة

أنشودة المطر

* * *

وتقولُ، ويخذلها النفسُ:
«الليل، الخنزير الشرس
الليل شقاء!»
مرجانة هل قرع الجرس
فتقول، ويخذلها النفس:
«في الباب نساء»
وتعد القهوة مرجانَه

* * *

وعلى الأكتاف البيض فراء
الذئب يدثر إنسانه
وعلى الأتداء من النمر
شرق يتسلسل، ملء الغاب، من الشجر
والليل يطول مع السمر
الليل كتثورٍ من أشباح البشر
خبزٌ يتنشق نيرانَه
والضيقة تأكل جوعانَه
من هذا الزاد ومرجانَه
كالغابة تبيض بردانَه

* * *

والضيقة تضحك وهي تقول: «خطيب سعاد
جافاها، وانطوت الخطبَه!
الكلب تنكَّر للكلبَه»
تموز يموت بدون معاد
والبرد ينتُّ من القمر
فتلوذ بمدفأة من أعراض البشر
والليل يطفئ شطآنَه
والضيقة تقبع بردانَه

أغنية في شهر آب

وفراء الذئب تغطيها
وتطفأت النيران اللاتي كانت بالدم تذكيتها

* * *

ليلٌ وجليد
يتساقط عبرهما صوت، رنات حديد
وعواء ذئب يخفيها
الصوت بعيد
والضيقة مثلي بردائه

* * *

فتعال وشاركني بردي
بالله تعالُ
يا زوجي، ها إني وحدي
والضيقة مثلي بردائه
فتعال تعالُ
فأمامك وحدك أقدر أن أعتاب الناس بلا استثناء
بالله تعالُ
فالناس كثير والظلماء
نقالة موتى سائقها أعمى، وفؤادك جبانة.

غارسيا لوركا

في قلبه تَنُورُ
النار فيه تطعم الجياع
والماء من جحيمه يفور
طوفانه يطهر الأرض من الشرور
ومقلته تنسجان من لظى شراع
تجمعان من مغازل المطر
خيوطه، ومن عيون تقدح الشرر
ومن تُدِيّ الأمهات ساعة الرضاع
ومن مدى تسبل منها لذة الثمر
ومن مدى للقابلات تقطع السرر
ومن مدى الغزاة وهي تمضغ الشعاع
شراعه النُدِي كالقمر
شراعه القوي كالحجر
شراعه السريع مثل لمحة البصر
شراعه الأخضر كالربيع
الأحمر الخضيب من نجيع
كأنه زورق طفل مزَّق الكتاب
يملاً مما فيه، بالزوارق النهر
كأنه شراع كولبس في العباب
كأنه القدر.

تعتيم

حين يذُرُّ النور
يلقي به التنور
عن وجهك الظلماء
ويهمس الديجورُ
آهاته السمراء
على محيِّاك
تهجس عيناك
بكل حزن الدهور
وكل أعيادها
أفراح ميلادها
وغمغمات النذور
وزهرها والخمور!

* * *

النور والظلماء
أسطورة منحوتة في الصخور
كم زاد بالنار
من أسدٍ ضاري
وكم أخافَ النمور
إنسانُ تلك العصور
بالنور والنار!

فأطفئني مصباحنا أطفئني
ولنطفئ التنور
وندفن الخبز فيه
كي لا تعيد الصخور
أسطورة النار، ظلت تدور
حتى غدا أول ما فيها
آخر ما فينا، وليل القبور
أول ما فيها
ولنبق في الديجور
كي لا ترانا نمور
تجوس في الظلماء
لترجم الأحياء
من غابة في السماء
بالصخر والنار
وتستبيح القبور!

المخبر

أنا ما تشاء أنا الحقير
صباغ أحذية الغزاة، وبائع الدَّم والضمير
للظالمين أنا الغراب
يقتات من جثث الفراخ. أنا الدمار، أنا الخراب!
شَفَّةُ البَغِيِّ أَعْفُ من قلبي، وأجنحة الذباب
أنقى وأدفاً من يديّ كما تشاء ... أنا الحقير!
لكنَّ لي من مقلتي — إذا تتبعنا خطاك
وتقرَّتا قسمات وجهك وارتعاشك — إبرتين
ستنسجان لك الشراك
وحواشي الكفن الملطَّخ بالدماء، وجمرتين
تروعان رؤاك إن لم تحرقك!
وتحول دونهما ودونك بين كفي الجريدهُ
فتند آهتك المديدهُ
وتقول: «أصبح لا يراني.» بيد أن دمي يراك
أني أحسُّك في الهواء وفي عيون القارئين
لم يقرءون لأن تونس تستفيق على النضال؟
ولأن ثوار الجزائر ينسجون من الرمال
ومن العواصف والسيول ومن لهات الجائعين
كفنَ الطغاة؟ وما تزال قذائف المتطوعين
يصفرن في غسق القنال؟

لَمْ يقرءون وينظرون إلَيَّ حيناً بعد حين
كالشامتين؟

سيعلمون من الذي هو في ضلال
ولأيننا صدأ القيود ... لأيننا صدأ القيود
لأيننا

نهض الحقير

وسأقتفيه فما يفر، سأقتفيه إلى السعير
أنا ما تشاء أنا اللئيم، أنا الغبي، أنا الحقود
لكنما أنا ما أريد أنا القوي، أنا القدير
أنا حامل الأغلال في نفسي، أقيّد من أشاء
بمثلهن من الحديد، وأستبيح من الخود
ومن الجباه أعزهن، أنا المصير، أنا القضاء
الحقد كالتنور فيّ إذا تلهّب بالوقود
الحبر والقرطاس، أطفأ في وجوه الأمهات
تنورهنّ، وأوقف الدم عن نُديّ المرضعات
في البدء كان يطيف بي شبّح يقال له: الضمير
أنا منه مثل اللص يسمع وقع أقدام الخفير
شبّح تنفس ثم مات
واللص عاد هو الخفير

في البدء لم أك في الصراع سوى أجير
كالبائعين حليبهن، كما تؤجّر — للبكاء
ولندب موتى غير موتاهنّ — في الهند النساء
قد أمعن الباكي على مضض، فعاد هو البكاء!

* * *

الخوف والدّم والصغار فأبي شيء أرتجيه؟
فعلى يديّ دمٌ وفي أذنيّ وهوهة الدماء
وبمقلتي دمٌ، وللدم في فمي طعمٌ كريه!
أثقل ضميرك بالآثام فلا يحاسبك الضمير

المخبر

وانس الجريمة بالجريمة والضحية بالضحايا
لا تمسح الدّم عن يديك فلا تراه وتستطير
لفرط رعبك أو لفرط أساك واحتضن الخطايا
بأشد ما وسع احتضانُ تنجُ من وخز الخطايا

* * *

قوتي وقوتُ بني لحم آدميٍّ أو عظام
فليحقدنّ عليّ، كالحمم المستعرة، الأنام
كي لا يكونوا إخوة لي آنذاك، ولا أكون
وريث قابيل اللعين، سيسألون
عن القتل فلا أقول:
«أنا الموكل - ويلكم - بأخي؟» فإن المخبرين
بالآخرين موكلون!

* * *

سحقاً لهذا الكون أجمع وليحلّ به الدمار!
ما لي وما للناس؟ لست أباً لكل الجائعين
وأريد أن أروى وأشبع من طوى كالأخرين
فليزلوا بي ما استطاعوا من سباب واحتقار
لي حفنة القمح التي بيدي ودانية السنين
خمس وأكثر أو أقل، هي الربيع من الحياة
فليحلموا هم بالغد الموهوم يبعث في الفلاة
روح النماء، وبالبيادر وانتصار الكادحين!
فليحلموا إن كانت الأحلام تُشبع من يجوع
إني سأحيا لا رجاء ولا اشتياق ولا نزوع
لا شيء غير الرعب والقلق المُض على المصير
ساء المصير!

رباه، إن الموت أهون من ترقبه المرير
ساء المصير

لم كنت أحقر ما يكون عليه إنسانٌ حقير؟!

عرس في القرية

مثلما تنفض الريحُ ذرَّ النُّضار
عن جناح الفراشة، مات النهار
النهار الطويل
فاحصدوا يا رفاقي، فلم يبق إلا القليل
كان نقر الدَّرابِكِ منذ الأصيل
يتساقط، مثل الثمار
من رياح تهوِّم بين النخيل
يتساقط مثل الدموع
أو كمثل الشرار
إنها ليلة العرس بعد انتظار
مات حبُّ قديمٍ، ومات النهار
مثلما تطفئُ الريح ضوءَ الشموع
الشموع ... الشموع
مثل حقل من القمح عند المساء
من ثغور العذارى تعب الهواء
حين يرقصن حول العروس
منشادات: «نوار، اهنتي يا نوار!
حلوة أنت مثل الندى، يا عروس»
يا رفاقي، سترنو إلينا نوار

من علٍ في احتقار
زهدها بنا حفنةً من نضار
خاتمٌ أو سوار، وقصرٌ مشيدٌ
من عظام العبيدِ
وهي، يا ربِّ، من هؤلاء العبيد!
ولو أنا وآباءنا الأولين
قد كدحنا طوال السنين
وأدخَرنا، على جوع أطفالنا الجائعين
ما اكتسبناه في كدنا من نقود
ما اشترينا لها خاتمًا أو سوارًا!
خاتمٌ ضمَّ في ماسه الأزرق
من رفات الضحايا مئات اللهود
اشتراها به الصيرفي الشقي
مثلما تنثر الريح عند الأصيل
زهرة الجُلنَّارِ
أقفر الريف لَمَّا تولَّت نوار
بالصبايات، يا حاملات الجرار
رحن واسألنها: «يا نوار
هل تصيرين للأجنبي الدخيل؟
للذي لا تكادين أن تعرفيه؟
يا ابنة الريف، لم تنصفيه!
كم فتىً من بنيه
كان أولى بأن تعشقيه!
إنهم يعرفونك منذ الصغر
مثلما يعرفون القمر
مثلما يعرفون حفيف النخيلِ
وضفاف النهر
والمطر

والهوى، يا نوار...»
احصدوا يا رفاقي، فإن المغيب
طاف بين الروابي يرش اللهب
من أباريق مجبولة من نضار
والزغاريد تصدي بها كل دار
أوقد القصر أضواءه الأربعين
فاتبعوني إليها مع الرائيين
اتركوني أغني أمام العريس
وأراقص ظلي كقرير سجين
وأمثل دور المحب التعيس
ضاحكاً من جراحات قلبي الحزين
من هواي المضاع
من قلوب الجياع
حين تهوى، ومن ذلة الكادحين
سوف أكل حتى ينز الدم
من عيوني فما زال عندي فم
كل ما عندنا نحن، هذا الفم!
كان وهماً هواناً، فإن القلوب
والصبايات وقف على الأغنياء!
لا عتاب فلو لم نكن أغنياء
ما رضينا بهذا، ونحن الشعوب.

مرثية الآلهة

ويبقى اليتامى بعدنا والمصانع
يغصُّ المنادي بالردى، وهو راجع
لها، فهو في منجى من الموت قابع
إلى حيث ترمي مقلتيه المطامع
بها مغرب الشمس البعيد الزعازع
وَقَتُّهُ انقِصَّ الدود منه، المباحع؟
فلو كان يحيا ما عدته الفواجع
به يُدمغ اثنان الورى والبضائع
تهجَّاه زَقَّار اللظى والمدافع
كلالٌ ولا وقتٌ بها مر ضائع
من المال عن أن ينفذ القوت مانع
وفي الطرح، إن يخطئ من الناس جامع
علينا عقابٌ بُرُّتُوا منه، واقع

بلينا وما تبلى النجوم الطوالح^١
ويبقى «كربُّ»^٢ الجالب الكرب كالصدى
كأن الأميبى^٣ توأمٌ وهو توأمٌ
ولكنه الفرد الذي يزحف الورى
أعنقاء من صحراء نجدٍ تقحَّمت
أم انسلَّ من أهرام فرعون هاجعٌ
ومن ليس يحيا لن يرى وهو هالكٌ
وما كان إلا اسمًا «كربُّ» ابن مثله
ولكنه اسم بالأسامي يفتنذي
تمنَّيت أني آلهٌ لا يصيبها
لها من دماء الناس قوتٌ وخلفها
وما تخطئ الآلات في الجمع تارةً
ولا عاقبتها عصبه من ورائها

^١ لم توضع الأبيات المضمنة بين أقواس، وإنما اُكْتُفِيَ بالإشارة إليها.

^٢ كرب Krupp صاحب معامل الأسلحة الألمانية الشهيرة.

^٣ الأميبى: حيوان ذو حجيرة واحدة، وهو خالدٌ لا يموت لانعدام شخصيته.

إله وأضحى ثالث وهو رابع
 على غفلة منا مُجِيعٌ وجائع
 ونرجوه أو ما خيَلته الطبائع
 بغير الذي تُطوى عليه الأضالع
 لما ليس يحيا دونه الناس راع
 وضنت على الشدق الحفي المراضع
 إله أحاطته المُدى والأصابع
 ولحمي هو الخبز الذي نال جائع
 يلمُّ الشظايا منه شارٍ وبائع
 نما فيه نابًا كوسجٍ فهو قاطع
 إلى حيث ما من راحلٍ ثم راجع
 بما امتاح من أحداق «ميدوز»^٤ لامع
 من الموت ظلًّا حَجَبته البراقع
 رباً واغتذى في جوفها وهو هاجع
 وأروى، ويُجزاه العدو المنازع
 حقولاً ترجى، فهي شوهٌ بلاقع
 كأوديب، للخبز الإلهي صافع
 لنرسييس يجثو عنده وهو خاشع
 شحوبٌ يهوذي التلاوين ناقع
 على قمة الأولمب ربُّ مخادع
 و«فولان» من تلماح عينيه مائع^٥
 مع الله إن ضاع الورى فهو ضائع
 خواء الحشا هذا الإله المضارع
 به ظاهرًا مِنَّا فحل التنازع.

ألا كم رفعنا من إلهٍ وكم هوى
 فما جاوزتنا صورةً منه خطها
 وما كان معبودًا سوى ما نخافه
 فتموز مثل اللات، والرعد ما رمى
 وكم أله التمر التهامي معشرٌ
 فلمَّا شكَّا بُعد الأثافي قدرها
 كفى كل ثغرٍ كان يدعوه جوعه
 دمي هذه الخمر التي تشربونها
 ولما تشظى قلب نرسييس وانثنى
 وغذى بها القلب الذي حين ذاقها
 هوى كل عالٍ من إله وسافلٍ
 وأفضى إلى العرش السديمي معدنٌ
 هو الشمس إلا أن في زمهريره
 جزى أمه الأرض التي من عروقها
 بشرٌ الذي يُجزى به شر من غذا
 فأدمي بنيتها وارتعي من بناتها
 كقابيل يعتال الأشقاء، راكلٌ
 وهذا الإله الأملس القظُّ ما جلا
 سوى وجه نرسييس الرخامي، شابه
 وأوفى من الأرباب جيل ينمُّه
 ترى «فحم» إذ يلقاه يلقاه راجفًا
 ويا عهد كنا كابن حلاج واحدًا
 أكل الرجال الجوف أن يملئوا به
 فعاد الفقير الروح من ليس كاسيًا

^٤ ميدوز: هولة في أساطير الإغريق تحيل من تلتقي عينه بعينها إلى صخر.

^٥ جرَّدت من الفحم والفولان شخصين لإلهين من الأرباب الجدد، أتباع زيوس الجديد - الذهب - وعاملتهما كاسمي علم، ومنعتهما من الصرف.

من رؤيا فوكاي

فوكاي: كاتب في البعثة اليسوعية في هيروشيما، جُنَّ من هول ما شاهده غداة
ضُربت بالقنبلة الذرية.

* * *

(١) هياي ... كونغاي، كونغاي^١

ما زال ناقوس أبيك يقلق المساء
بأفجع الرثاء:
«هياي ... كونغاي، كونغاي»
فيَفزع الصغارُ في الدروب
وتخفق القلوب
وتغلق الدور ببيكين وشنغهاي
من رجع كونغاي، كونغاي!

^١ تحدثنا إحدى الأساطير الصينية عن ملك أراد ناقوسًا ضخماً يُصنع من الذهب والحديد والفضة والنحاس، وكلف أحد الحكام بصنعه. ولكن المعادن المختلفة أبت أن تتحد. واستشارت كونغاي — وهي ابنة ذلك الحاكم — العرافين بالأمر فأنبئوها بأن المعادن لن تتحد ما لم تمتزج بدماء فتاة عذراء ... وهكذا ألقت كونغاي بنفسها في القدر الضخمة التي تُصهر فيها المعادن ... فكان الناقوس ... وظل صدى كونغاي يتردد منه كلما دق: «هياي ... كونغاي، كونغاي.»

فلتُحَرِّقِي وطفلك الوليد
ليُجمع الحديد بالحديد
والفحم والنُّحاس بالنُّضار
والعالم القديم بالجديد
آلهة الحديد والنحاس والدمار
أبوك رائد المحيط، نام في القرار
من مقلتيه لؤلؤً يبيعه التجار^٢
وحظك الدموع والمحار
وعاصف عاتٍ من الرصاص والحديد
وذلك المجلجل المرنُ من بعيد
لمن، لِمَنْ يدق: «كونغاي، كونغاي»؟
أهم بالرحيل في «غرناطة» العجر؟
فاخضرت الرياح، والغدير، والقمر؟^٣
أم سمر المسيح بالصليب فانتصر
وأنبئت دماؤه الورود في الصخر؟
أم أنها دماء كونغاي؟
ورغم أن العالم استسرَّ واندثر،^٤
ما زال طائر الحديد يذرع السماء

^٢ شكسبير — العاصفة أغنية «أريل» — روح الهواء الذي سخره «بروسبيرو» الساحر لفرديناند: «على عمق أذرعة خمس ينام أبوك في قرارة البحر، لقد أصبحت عيناه لؤلؤتين، اسمع ها هو الناقوس ينعاه.» وقد اتخذه ت. س. إليوت في قصيدته الكبرى «الأرض الخراب» رمزاً عن «الحياة من خلال الموت»، ولكن لاحظ كيف حولت «يبيعه التجار» المعنى.

^٣ هذا البيت مقتبس من قصيدة للشاعر الإسباني القتيل لوركا، شاعر العجر.

^٤ هذا البيت والأبيات الستة التي تليه — تكاد تكون حرفية — عن الشاعرة الإنكليزية إديث ستويل من قصيدتها الرائعة ترنيمة السرير Lullaby حيث تجلس البابيون — القردة — في قاع المحيط تهز مهد طفل بشري — قتل «طائر الحديد» أمه — وتغني له مصبحة بهذا — وهي القردة — أمًّا للطفل البشري ومعلمة له أيضًا.

وليلحظ قراء قصيدتي هذه أن هناك شخصًا ثلاثة تترابط في ذهني: الصياد الياباني — أو الصيني

وفي قرارة المحيط يعقد الكرى
أهداف طفلك اليتيم، حيث لا غناء
إلا صراخ «البابيون»: «زادك الثرى
فازحف على الأربع فالحضيض والعلاء
سيان، والحياة كالغناء!»
سيان «جنكيز»، و«كونغاي»
هايبيل قابيل، وبابل كشنغهاي
وليست الفضة كالحديد
هياي كونغاي، كونغاي!
الصين حقل شاي
وسوق شنغهاي
يعج بالمزارعين قبل كل عيد
هياي ... كونغاي، كونغاي!

(٢) تسديد الحساب

أقصى ذراها، وكم مرت بها الظلم
من ألف نجمٍ تردّي مسّها ألم
ولا ترصدها موت ولا هرم
لنالهنّ على استياداعها ندم
من جزية لا تُوفّي حين تُقتسم
وما استجد دمٌ إلا وضاع دم
يقرب من النور إلا الفكر والرحم

تلك الرواسي كم انحط النهار على
فما فرحن بألاف الشموس، ولا
صماء، بكماء، لم تأخذ، ولا هبت
لو أودع الله إياها أمانته
ولأقتسمن مع الأحياء ما دفعت
عن كل قهقهة من صرخة ثمن
وما تحمل آلام المخاض ولم

— الغريق الذي أخطب ابنته، وأبو «فرديناند» — الذي زعم أريل أنه غرق — والقردة «البابيون» التي اتخذت مكان أم الطفل في قرارة المحيط، كما جاء في قصيدة إيديث ستويل.

وإن يكن أسعد الأحياء أكملها
«قابيل» باق، وإن صارت حجارته
ورد «هابيل» ما قاضاه بارئه
واليوم، في حين وفى الدين غارمه
وكاد يُرجع للنديا بشاشتها
مشى على الأرض خلق عاش في دمه
خلق تراءى لـ «يحيى»^٥ ساعة افترتست
لو يُقبض النور بالأيدي لسوره
ريان عطشان لا يروى، بلا فرح
كأنه — وهو ماضٍ في غوايته
تفجر الضحك المسلوب من رئة
عن ضحكة أطلقوها فهي صاعقة
واستنزفوا متعة الأحياء ما دفعوا
ثم استزادوا فإن لم يذهبوا دبة

فإنما هو أشقاهن لا جرم؟
سيفاً، وإن عاد ناراً سيفه الخدم
عن خلقه، ثم ردت باسمه الأمم
إلا بقايا وكادت تخلص الذمم
ما قربته الضحايا وهي تبتسم
من وحشها في المخاض الأول الضرم
عينيه رؤيا لها من هؤلاء فم
دون الورى ... ولتعمّ العالم الظلم
جدلان، باد عليه الجوع والبشم
من نفسه اقتص، فهو الماء والحُم
منخوبة بعد أخرى هدها السقم
أصابهم والورى من رجعها صمم
عنها، ولا غارماً ما استنزفوا رحموا
أو يقصروا عن طماحٍ يرجح العدم!

(٣) حقائق كالخيال^٦

ماذا تريد العيون السود من رجلٍ
قد حاش زهر الخطايا حين لاقاها
زهراً على جسمي المحموم أقطفه
في باقية من جراحٍ بتُّ أصلاها

^٥ القديس يوحنا، كما يسميه المسيحيون.

^٦ المتحدث في هذه القصيدة مريض في مستشفى الصليب الأحمر في هيروشيما، مصاب بالزهري الذي افترس دماغه حتى عاد يتخيل أشياء لا وجود لها، ولكنه — من خلال أوهامه ودون وعي منه — يصور

جانباً مما حدث في هيروشيما حين أُلقيت عليها القنبلة.

من رؤيا فوكاي

هذا الربيع الذي تُهدي شقائقه
ريح المنايا إلى قلبي بريها
أزهار تمّوز^٧ ما أرعى أسلمه
في عتمة العالم السفلي إياها؟
أم صل حواء بالتفاح كافأني
وهو الذي أمس بالتفاح أغواها؟
ماذا تريد العيون السود؟ إنَّ لها
ما لست أنساه منها حين أنساها
ما بالهنَّ استعضنَ اليوم أوعيةً
عن أوجه الغيد ... حتى ضاع معناها؟
أين المناكير من لعسٍ مرآشفها
ربي؟ وأين ابتسام كان يغشاها
من هذه الخربة الظلماء محدقة
بي أعين اليوم من أجداث موتاها؟
قفراءً من غير ثكلى شَفَّ مئزرها
عن وهج فانوسها الكابي وأخفاها
تسعى كما اصطادَ في ليلٍ يراعته^٨
طفلٌ، وطارت وقد ألوى جناحها
محنيةً تتقرى كل شاهدةٍ
من كل قبرٍ، كما لو كان طفلها
في كل قبرٍ يذوقان الردى ديةً
عمن يؤاوي وعن أحياء دنياها

^٧ تموز هو أدونيس إله الخصب والنماء، وحبیب عشتروت - أو فينوس - إلهة الحب، وهو يقضي نصفاً من السنة - الشتاء - في العالم السفلي مع برسفون، والنصف الآخر - الصيف أو الربيع - على الأرض مع فينوس.

^٨ اليراعة ذبابة مضيئة، حباب.

أنشودة المطر

نادتهما فانبرى يزقو لصيحتها
من حيث رَدَّ الصدى، بومٌ وناداهما:
«أماه إنا هنا ريحٌ بنا عصفت
لم ندر أين انتهينا بعد لقيائها.»
وانشق من خلفها قبرٌ ليبلعها
واحتازها واشرأبت منه كفاها
يختصُّ فانوسها التمتام بينهما
والريح خرساء تعبى غير «ها ... ها ... ها»

* * *

وَيْلُمٌ سَازَاكٌ^٩ كَيْفَ اِنْدَكَ حَائِطُهُ
حَتَّى تَعْرَى لِي السَّهْلَ الَّذِي حَجَبَا؟
سَهْلٌ يَكُنُّ الصَّلَالَ الرَّقْطَ، أَجْهَضُهُ
عَادٍ مِنَ الْمَحَلِّ حَتَّى يَفْزَعِ الْعَطْبَا
وَانْبَحَّتْ التَّرْبَةُ الْعَجْفَاءُ مِنْ عَطَشٍ
عَنْ أَشْدُقِ فَاغْرَاتٍ تَنْبِجِ السَّحْبَا
وَالشَّمْسُ كَالْأَطْلَسِ^{١٠} الْمَسْعُورِ تَنْهَشُهُ
وَالرِّيحُ تُصَلِّيهِ مِنْ تَنْوَرِهَا لَهَا
الرِّيحُ؟ لَا، لَيْسَتْ الرِّيحُ الَّتِي رَكُضَتْ
بِيضَاءِ سُودَاءِ رِقْطَاءِ الْقَفَا عَجْبَا
عَنْقَاءً^{١١} فِي مَسْعَرِ الْجُوزَاءِ أَعَيْنَهَا
وَالصَّخْرُ يَرْفُضُ مِنْ أَظْلَافِهَا شَهْبَا

^٩ الدكتور سَازَاكِي كَانَ طَبِيبًا فِي مَسْتَشْفَى الصَّلِيبِ الْأَحْمَرِ فِي مَدِينَةِ هِيرُوشِيْمَا.

^{١٠} الْأَطْلَسُ: الذَّنْبُ.

^{١١} عَنْقَاءُ: طَوِيلَةُ الْعَنْقِ.

من رؤيا فوكاي

تلك الزرافات^{١٢} في السهل العقيم لها
مرعى روى من سراپ، ينبت السغبا
ما روعتها سوى ضوضاء خشخشة
في كفّ أبرص يعدو خلفها خببا
تخفيه عنها ضمادات، ويظهره
ما نَزَّ من قيحه الدامي وما شخبا
نادى، وكفّاه تختضّان: «وا حربا!»
فاستعبر العاصف المصدور: «وا حربا!»
«ماء اسقي يا ماء ...» تلهأُ مقاطعه
منزوعة من لسان يشبه الخشبا
حتى استجاب السحاب الجون فانعقدت
في الجو حباته الغبراء فاحتجبا
وانهلاً لا عن ندى صافٍ ولا مطر
بل عن دم، من تُديّ مُزّقت حلبا
أو عن مشاش من الأحداق فقأها
سيحٌ لجنكيز^{١٣} دامٍ ينفث اللهب
«ماء، اسقي يا ماء ...» والغيث الرهيب كُلى
مفريّة سحّت الأجال والكربا
لم يبقَ من مرتوٍ أو ظامئٍ، بقمٍ
أو دون ... إلا ومن ماء الردى شربا
* * *

ويلٌ لسازاك! ماذا ينتوي بدمي
من نيةٍ فهو يستصفي ويمتار؟

^{١٢} الزرافات: جمع زرافة، الحيوان المعروف.

^{١٣} جنكيز خان السفاح المشهور.

أنشودة المطر

تلك الزجاجات أشلاء مجزأة
مني، دمي مختزٍ فيهن موار!
لم تثن سازاك عن شحذٍ لمُدَيْتِه
آهات مرضى، ولا ألهاه زوار
إني لدارٍ باني حين يشرعها
ران إليها، فملدوغٌ، فمُنهار
هل تبتغي شفرتها غير آنيّة
فيها دمي راجفٌ، والداء والعار؟
ما كنت يومًا ولا المرضى سوى عَرَضٍ
في عين سازاك، يُجبي منه إيجار
ستٌ وعشرون أعدادٌ على سررٍ
أما الأصحاء والمرضى فأصفار!
فالرقم «عشرون» لا يسقى سوى لبنٍ
والرقم «عشرٌ» نعاه اليوم محرار
واليوم لم يبقَ ما أعطيه عن مرضٍ
إلا دعائي وقولي: «نعمت الدار!»
فليلق سازاك من يسمى «ثمانية»
غيري، ويستوفٍ أجر القبر حفار!

قافلة الضياع

أرأيت قافلة الضياع؟ أما رأيت النازحين؟
الحاملين على الكواهل، من مجاعات السنين
آثام كل الخاطئين
النازفين بلا دماء
السائرين إلى وراء
كي يدفنوا «هابيل» وهو على الصليب ركام طين؟
«قابيل، أين أخوك، أين أخوك؟»
جمعت السماء
أمادها لتصبح، كَوَّرَتِ النجوم إلى نداء
«قابيل، أين أخوك؟»
«يرقد في خيام اللاجئين
السل يُوهن ساعديه، وجئته أنا بالدواء
والجوع لعنة آدم الأولى وإرث الهالكين
ساواه والحيوان ثم رماه أسفل سافلين
ورفعته أنا بالرغيف، من الحضيض إلى العلاء»
الليل يجهض، والسفائن مثقلات بالغزاه
بالفاتحين من اليهود
يلقين في حيفا مراسيهن. كابوس تراه
تحت التراب محاجر الموتى فتجحظ في اللحد
الليل يجهض فالصباح من الحرائق ... في ضحاه

الليل يجهض فالحياة
شيء ترَجَّح لا يموت ولا يعيش بلا حدود
شيء تفتَح جانباها على المقابر والمهود
شيء يقول: «هنا الحدود!»
هذا لكل اللاجئيين، وكل هذا لليهود!»

* * *

النار تصرخ في المزارع والمنازل والدروب
في كل منعطف تصيح: «أنا النضار، أنا النضار»
من كل سنبله تصيح ومن نوافذ كل دار:
«أنا عجل «سيناء» الإله، أنا الضمير، أنا الشعوب
أنا النضار!»

النار تتبعنا، كأنَّ مدى اللصوص وكل قطاع الطريق
يلهثن فيها بالوباء، كأنَّ ألسنة الكلاب
تلتزَّ منها كالمبارد وهي تحفر في جدار النور بابٌ
تتسبب الظلماء كالطوفان منه، فلا ترابٌ
ليعاد منه الخلق، وانجرف المسيح مع العباب
كان المسيح بجنبه الدامي ومئزره العتيق
يسد ما حفرته ألسنة الكلاب

فاجتاحه الطوفان حتى ليس ينزف منه جنب أو جبينٌ
إلا دجى كالطين تُبنى منه دور اللاجئيين
النار تركض كالخيول وراءنا أَهْمُ المغول
على ظهور الصافنات؟ وهل سألت الغابرين
أرَوَّضوا أمس الخيول؟
أم نحن بدء الناس كل تراثنا أنصاب طين

* * *

النار تصهل من ورائي والقذائف لا تنام
عيونها وأبي على ظهري، وفي رجلي جنين
عريان دون فمٍ ولا بصيرٍ تكوّر في الظلام

في بركة الدَّم وهو يفرك أنفه بيدٍ وكالجرس الصغير
يرنُّ ملء دمي صداه — تكاد تومض كل روعي بالسلام
حتى أكاد أراه في غبش الدماء المستنير
عريان دون فَمٍ كأفقر ما يكون بلا عظام
وبلا أبٍ، وبدون حيفا دون ذكرى — كالظلام!
أسريت وأعبر، تحت أجنحة الحديد به الزمان
من الحقول إلى المراعي فالكهوف
والأرض تطمس من وراء ظهورنا، كالأجدية
الدور فيها والدوالي شاخصات كالحروف
فكأن أمسٍ غدٌ يلوح وليس بينهما مكان
لم نخرجونا من قرانا وحدهنَّ ولا من المدن الرخيئة
لكنهم قد أخرجونا من صعيد الآدمية!
فاليوم تمتلئ الكهوف بنا ونعوي جائعين
ونموت فيها لا نخلف للصغار على الصخور
سوى هباب ما نقشنا فيه من أسدٍ طعين!
ونموت فيها لا نخلف بعدنا حتى قبور
ماذا نحط على شواهدها؟ «كانوا لاجئين»؟
اليوم تمتلئ الكهوف بنا تظلل بالخيام
وبالصفيح، وقد تغلفهنَّ بالأجرِّ دوز
والنور كالتابوت فيها، ليس فيه سوى ظلام

* * *

بين الكهوف وبين حيفا من ظلام ألف عام أو يزيد
بين الكهوف وبين أمس هناك بئر لا قرار
لها، كهافية الجحيم تلتزُّ فاها دون نار
تتعلق الأجداث فيها كالجلامد في جدار
لحدًا على لحدٍ، أزيح الطين عنها والحجار
من يدفن الموتى وقد كشفوا وماتوا من جديد؟
من يدفن الموتى

ليولد، تحت صخرة كل شاهدة، وليدٌ؟
من يدفن الموتى لئلا يرخموا باب الحياة
على أكف القابلات؟
من يدفن الموتى لنعرف أننا بشر جديدًا!
في كل شهرٍ من شهور الجوع يومئذٍ يوم عيدٍ
فنخف نحمل من «تذاكرنا» صليب اللاجئين:
«يا مكتبًا للغوث في سيناء هب للتائهين
منًا وسلوى من شعير، والمشيمة للجنين
واجعل له المطاط سره
وارزقه ثديًا من زجاج وأحش بالإدريج صدره»

* * *

وبأيما لغة نقول فيستجيب الآخرون
ونورث الدم للصفار؟
أعلمت — حين نقول دار أو سماء — أي دارٍ
أو سماء تخطران على العنوان؟
هيهات، ليس لللاجئين ولاجنات من قرار
أو ديار
إلا مرابع كان فيها أمس معنى أن نكون
سنظل نضرب كالمجوس نجس ميلاد النهار!
كم ليلة ظلماء كالزجم انتظرنا في دجاها
نتلمس الدّم في جوانبها ونعصر من قواها
شعّ الوميض على رتاج سمائها مفتاح نازٍ
حتى حسبنا أن باب الصبح يفرج، ثم غار
وغادر الحرس الحدود
واختص رعدٌ في مقابر صمتها يعد القفار
ثم اضمحلّ إلى غبار بين أحذية الجنود
الليل أجهض ناره الحمى وديمته انتخاب الضائعين
الليل أجهض: ليس فيه سوى مجوس اللاجئين

قافلة الضياع

* * *

النار تركض كالخيول وراءنا أَهْمُ المغولُ
على ظهور الصافنات؟ وهل سألت الغابرين
أروضوا أمس الخيول؟
أم نحن بدء الناس: كل تراثنا أنصاب طين؟

يوم الطغاة الأخير

أغنية تائر عربي من تونس لرفيقتة

«إلى المنتقى...» وانطوى الموعد
وظل الغد
غد التائرين القريب
يدًا بيد من غمار اللهب
سنرقى إلى القمة العالیه
وشعرك حقلُ حباه المغيب
أزاهيره القانيه

* * *

نرى الشمس تنأى وراء التلال
وبين الظلال
وقد رفَّ، مثل الجناح الكسير
على كومةٍ من حطام القيود
على عالم بائدٍ لن يعود
سناها الأخير
تقولين لي: «هل رأيت النجوم؟
أبصرتها قبل هذا المساء
لها مثل هذا السَّنا والنَّقاء؟»

تقولين لي: «هل رأيتَ النجوم
وكم أشرقت قبل هذا المساء
على عالم لطحته الدماء
دماء المساكين والأبرياء!»
تقولين لي: «هل رأيتَ النجوم
تُطَلُّ على أرضنا وهي حرة
لأول مرَّة؟»
نعم، أمس حين التفتُّ إليك
ترأين كالهجس في مقلتيك

* * *

وإذ يستضيء المدى بالحريق
فيندكُ سجن ويجلى طريقُ
ويذكى بأطيافه الدائقه
محيًاك باللهفة الهائنه؟
تقولين: «نحن ابتداء الطريق
ونحن الذين اعتصرنا الحياه
من الصخر تدمى عليه الجباه
ويمتص ري الشفاه
من الموت في موحشات السجون
من البؤس، من خاويات البطون
لأجيالها الآتيه
لنا الكوكب الطالع
وصبح الغد الساطع
وأصاله الزاهيه!»

إلى جميلة بو حيرد

لا تسمعها إنَّ أصواتنا
تخزى بها الريح التي تنقل
بابٌ علينا من دمٍ مقفل
ونحن في ظلماتنا نسأل:
من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتل؟
من يصلب الخبز الذي نأكل؟
نخشى إذا وارىت أمواتنا
أن يُفزع الأحياء ما يبصرون
إذ يُفقر الكهف الذي يأهلون
إن عربد الوحش الذي يُطعمون
من أكْبُد الموتى، فمن يبذل؟

* * *

يا أختنا المشبوحة الباكية
أطرافك الدامية
يقطرن في قلبي وبيكين فيه
يا من حملت الموت عن رافعيه
من ظلمة الطين التي تحتويه
إلى سماوات الدم الواربه
حيث التقى الإنسان والله، والأموات والأحياء في شهقة
في رعشة للضربة القاضيه

الأرض، أم الزهر والماء والأسماك والحيوان والسنبل
لم تبلُ في إرهابها الأول
من خضة الميلاد ما تحملين
ترتج قيعان المحيطات من أعماقها، ينسحُ فيها حنين
والصخر منشدٌ بأعصابه — حتى يراها — في انتظار الجنين
الأرض؟ أم أنت التي تصرخين؟
في صمتك المكتظُّ بالآخرين؟
في ذلك الموت، المخاض، المحب، المبعوض، المنفتح، المقفل
ونحن؟ أم أنت التي تولدين؟
أسخى من الميلاد ما تبذلين
والموت، أقسى منه، من كل ما عاناه أجيالٌ من الهالكين
أن الذي من دونه الجُلجَلَة
والسوط والسجان والمقصلة
أن الذي يفديك أو تفتدين
غير الذي آذوه بالنار أو بالعار والماء الذي تشربين
عبءٌ من الآجال ما أثقله!
كم حاول الجلاذ أن ينزله
كم ود أن تلقيه إذ تعجزين
مشبوحة الأطراف فوق الصليب
مشبوحة العينين عبر الظلام
يأتيك من وهران — يا للزحام!
حشدٌ مُشعُّ باشتعال المغيب
يأتيك كل الناس، كل الأنام
يرجون، ممًا تبذلين، الطعام
والأمن والنعماء والعافية
وأنت مثل الدوحة العارية
لم يُبق منك البغي إلا الجذور
الموت وإه دونها، والنشور

فيها، وتجري دونك الساقية
ما شب في وهران من برعم
أو أزهرت في أطلس عوسجُه
إلا ودبت في مسيل الدم
نمنمةً منعشةً مبهجةً
توحي بأن الأرض ظلت تدور
طاحونةً للقاتل المجرم
تسحق منه واهن الأعظم
وأن ألوان الأذى والعذاب
نخرٌ لنا، نجلوه يوم الحساب
نسقي به الباغين، نروي التراب
من لفحه، أن الهوى والشباب
لم يذهبا، أن البعاد اقتراب
أن من الدمع الذي تسكبين
أسلحةً في أذرع الثائرين.
جاء زمانٌ كان فيه البشر
يفدون من أبنائهم للحجر:
«يا رب عطشني نحن، هات المطر!
رؤ العطاشي منه رؤ الشجر»
وجاء حينٌ عاد فيه البشر
يفدون بالأنعام ما تحبس السماء في أعماقها من قدر
وجاء عصرٌ سار فيه الإله
عريان، يدمى، كي يروي الحياة
واليوم ولي محفل الآلهة
اليوم يفدي ثائر بالدماء
الشيب والشبان، يفدي النساء
يفدي زروع الحقل، يفدي النماء
يفدي دموع الأيم الوالهة

بالأمس دوى في ثرى يثرب
صوتٌ قويٌّ من فقيرٍ نبي
ألوى ببغي الصخر لم يضرب
وحطم التيجان أي انطلق
في مصر، في سورية، في العراق
في أرضك الخضراء كان اعتناق!
بالأمس وارى قومك الآلهة
عشتار، أم الخصب، والحب، والإحسان، تلك الربة الوالهة
لم تُعط ما أعطيت، لم تُرَو بالأمطار ما رويت: قلب الفقير
لم يعرف الحقد الذين يعرفون
والحسد الأكل حتى العيون
نحن بنو الفقر الذي يزعمون
في كل عصر أنهم وارثوه
قاييل فينا ما تهاوى أخوه
من ضربة الحقد التي يضربون
يوم ابتدأنا كان عبء السماء
ملقى على أطلس
يزحمه بالمنكب الأملس
ثم ارتقى «إيفل»^١، تمَّ البناء
فانحط ذاك العبء حيناً عليه
ثم انطلقنا نحن من جانيبه
حتى حملنا عبئها، كل ما فيها من الأبراج والأنجم
يا أختنا المشبوحة الباكية
أطرافك الدامية
يقطرن في قلبي وبيكين فيه
لم يلق ما تلقين أنت المسيح

^١ برج إيفل في باريس.

أنت التي تفدين جرح الجريح
أنت التي تعطين ... لا قبض ريح
يا أختنا، يا أم أطفالنا
يا سقف أعمالنا
يا ذروة تعلو لأبطالنا
ما حز سوط البغي في ساعدك
إلا، وفي غيبوبة الأنبياء
أحسست أن السوط، أن الدماء
أن الدجى، أن الضحايا ... هباءً
من أجل طفل ضاحكته السماء
فرحان في أرضه
وبعضه فرحان من بعضه
أحسسته يحبو على راحتك
سمعته يضحك في مسمعك
يهتف: «يا جميلة
يا أختي النبيلة
يا أختي القتيلة
لك الغد الزاهر كما تشتهين»
وأنت إذ أحسست، إذ تسمعين
تعلو بك الألام فوق التراب
فوق الذرى، فوق انعقاد السحاب
تعلن حتى محفل الآلهة
كالربة الوالهة
كالنسمة التائهة

* * *

لا تسمعها إن أصواتنا
تخزى بها الريح التي تنقل
بابٌ علينا، من دمٍ مقفل

ونحن نحصي، ثمَّ، أمواتنا
الله لولا أنت يا فاديه
ما أثمرت أغصاننا العاريه
أو زنبقت أشعارنا القافيه
إنا هنا في هوةٍ داجيه
ما طاف لولا مقلتك الشعاع
يوماً بها نحن العراة الجياغ
لا تسمعي ما لفقوا، ما يذاع
ما زينوا، ما خط ذلك اليراع
إنا هنا كَوْمٌ من الأعظم
لم يبق فينا من مسيل الدم
شيء نروي منه قلب الحياه
إنا هنا موتى، حفاة، عراه
لا تسمعيتها، إن أصواتنا
تخزي بها الريح التي تنقل
بابٌ علينا، من دم، مقفل
ونحن في ظلماتنا نسأل:
«من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتل؟»
يا نفحةً من عالم الآلهه
هبت على أقدامنا التائهه
لا تمسحيتها من شواظ الدماء
إنا سنمضي في طريق الفناء
ولترفعي «أوراس» حتى السماء
حتى تروى من مسيل الدماء
أعراق كل الناس، كل الصخور
حتى نمس الله
حتى نثور!

رسالة من مقبرة

إلى المجاهدين الجزائريين

من قاع قبري أصيخُ
حتى تتن القبورُ
من رجع صوتي، وهو رملٌ وريح:
من عالمٍ في حفرتي يستريح
مركومةً في جانبيه القصورُ
وفيه ما في سواه
إلا دبيب الحياهُ
حتى الأغاني فيه، حتى الزهور
والشمس، إلا أنها لا تدور
والدود نثارٌ بها في ضريح
من عالمٍ في قاع قبري أصيخ:
«لا تيأسوا من مولدٍ أو نشور!»

* * *

النور من طينٍ هنا أو زجاجُ
قفلاً على باب سورُ
النور في قبري دجىً دون نورُ
النور في شباك داري زجاجُ

كم حدقت بي خلفه من عيونُ
سوداء كالعار
يجرحن بالأهداب أسراري
فالיום داري لم تعد داري
والنور في شباك داري ظنونُ
تمتص أغواري
وعند بابي يصرخ الجائعون:
« في خبزك اليومي دفء الدما »
فاملأ لنا، في كل يوم، وعاء
من لحمك الحمي الذي نشتهيهِ
فنكهة الشمس فيه
وفيه طعم الهواء! »
وعند بابي يصرخ الأشقياء:
« اعصر لنا من مقلتيك الضياء
فإننا مظلومون! »
وعند بابي يصرخ المخبرون:
« وعزُّ هو المرقى إلى الجلجلة^١
والصخر، يا سيزيف، ما أثقلهُ
سيزيف ... إن الصخرة الآخرون! »

* * *

لكن أصواتاً كقرع الطبول
تنهل في رمسي
من عالم الشمس
هذي خطى الأحباء بين الحقول
في جانب القبر الذي نحن فيه
أصدائها الخضراء

^١ الجلجلة الجبل الذي حمل المسيح صليبه إلى قمته.

تنهّلُ في داري
أوراق أزهار
من عالم الشمس الذي نشتهيهِ
أصدائها البيضاءُ
يصدعن من حولي جليد الهواء
أصدائها الحمراءُ
تنهّلُ في داري
شلال أنوار
فالنور في شباك داري دماء
ينضحن من حيث التقى، بالصخورُ
في فوهة القبر المغطاة، سور
هذا مخاض الأرض لا تيأسي
بشراك يا أجداث، حان النشورُ!
بشراك في «وهران» أصداء صورُ
سيزيف ألقى عنه عبء الدهورُ
واستقبل الشمس على «الأطلس»!

* * *

آهٍ لوهران التي لا تنثور!

في المغرب العربي

قرأت اسمي على صخره
هنا، في وحشة الصحراء!
على آجره حمراء
على قبر فكيف يحس إنسان يرى قبره؟
يراه وإنه ليحار فيه:
أحي هو أم ميت؟ فما يكفيه
أن يرى ظلًا له على الرمال
كمثذنة معفرة
كمقبرة
كمجد زال!
كمثذنة تردد فوقها اسم الله
وخط اسم له فيها
وكان محمد نقشًا على آجره خضراء
يزهو في أعاليها
فأمسي تأكل الغبراء
والنيران، من معناه
ويركله الغزاة بلا حذاء
بلا قدم
وتنزف منه، دون دم
جراح دونما ألم

فقد مات
ومتنا فيه، من موتى ومن أحياء
فنحن جميعاً أموات
أنا ومحمد والله
وهذا قبرنا أنقاض مئذنة معفّرة
عليها يكتب اسم محمد والله
على كسبٍ مبعثرةٍ
من الأجرِّ والفخار
فيا قبر الإله، على النهار
ظلُّ لألف حربةٍ وفيل
ولون أبرهه
وما عكسته منه يد الدليل
والكعبة المحزونة المشوّهة
قرأت اسمي على صخره
على قبرين بينهما مدى أجيالٍ
يجعل هذه الحفرة
تضم اثنين: جد أبي، ومحض رمال
ومحض نثارة سوداء منه، استنزلا قبره
وإيائي، ابنه في موته والمضغة الصلصال

* * *

وكان يطوف من جدي
مع المد
هتافٌ يملأ الشيطان: يا ودياننا تُوري!
ويا هذا الدمُّ الباقي على الأجيالِ
يا إرث الجماهير
تشظُّ الآنَ وأسحَقُ هذه الأغلال
وكالزلال
هز النير، أو فاسحقه واسحقنا مع النير

وكان إلهنا يختالُ
بين عصائب الأبطال
من زندي إلى زندي
ومن بند إلى بند

* * *

إله الكعبة الجبارُ
تدرع أمس في ذي قارُ
بدرع من دم النعمان في حافاتها آثارُ
إله محمد وإله آبائي من العرب
ترأى في جبال الريف يحمل راية الثوار
وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار
وأبصرناه يهبط أرضنا يوماً من السحب
جريحاً كان في أحيائنا يمشي ويستجدي
فلم نضمد له جرحاً
ولا ضحى
له منا بغير الخبز والإنعام من عبدا!

* * *

وأصوات المصلين ارتعاشاً من مرآثيه
إذا سجدوا ينز دُمُ
فيسرع بالضماد فمُ
بآياتٍ يغض الجرح منها خير ما فيه
تداوي خوفنا من علمنا أنا سنحبيه
إذا ما هلل الثوار منا: «نحن نفديه!»

* * *

أغار، من الظلام على قرانا
فأحرقهنَّ، سربُ من جراد
كأن مياه دجلة، حيث ولى
تنم عليه بالدم والمداد

أليس هو الذي فجأ الحبالى
قضاه، فما ولدن سوى رماد؟
وأنعل، بالأهله في بقايا
مآذنها، سناكب من جواد؟
وجاء الشام يسحب في تراها
خطى أسدين جاعا في الفؤاد؟
فأطعم أجوع الأسدين عيسى
وبل صداه من ماء العماد
وعض نبي مكة ... فالصحاري
وكل الشرق ينفر للجهاد؟

* * *

أعاد، اليوم، كي يقتص من أنا دحرناه؟
وأن الله باق في قرانا، ما قتلناه؟
ولا من جوعنا يوماً أكلناه؟
ولا بالمال بعناه
كما باعوا
إلهم الذي صنعوه من ذهب كدحناه؟
كما أكلوه إذ جاعوا
إلهم الذي من خبزنا الدامي جبلناه؟
وفي باريس تتخذ البغايا
وسائدهن من ألم المسيح
وبات العقم يزرع في حشاها
فم التنين: يشهق بالفحيح
ويقذف من حديد في حمانا
جحافل كالفوارس، دون روح
تجد وراء مكة في الصياصي
أقمناها، ويثرب في السفوح

* * *

قرأت اسمي على صخره
وبين اسمين في الصحراء
تنفس عالم الأحياء
كما يجري دم الأعراق بين النبض والنبض
ومن أجره حمراء مائلة على حفره
أضاء ملامح الأرض
بلا ومض
دم فيها، فسماها
لتأخذ منه معناها
لأعرف أنها أرضي
لأعرف أنها بعضي
لأعرف أنها ماضي، لا أحياء لولاها
وأني ميت لولاه، أمشي بين موتها
أذاك الصاحب المكتظ بالرايات واديننا؟
أهذا لون ماضينا
تضوءاً من كوى «الحمراء»
ومن أجره خضراء
عليها تكتب اسم الله بقيا من دم فينا؟
أنبر من أذان الفجر؟ أم تكبيرة الثوار
تعلو من صياصينا...؟
تمخضت القبور لتنشر الموتى ملايينا
وهب محمد وإلهه العربي والأنصار
إن إلهنا فينا.

مرثية جيكور

يا صليب المسيح ألقاك ظلًّا
فوق «جيكور»^١ طائر من حديد
يا لظل كظلمة القبر في اللون، وكالقبر في ابتلاع الخدود
والتهام العيون من كل عذراء كعذراء «بيت لحم» الولود
مرَّ عجلان بالقبور العواري من صليب على النصارى شهيد
فاكتست منه بالصليب الذي ما كان إلا رمز الهلاك الأبيد:
لا رجاء لها بأن يبعث الموتى ولا مأمل لها بالخلود!
ويل جيكور؟ أين أيامها الخضر وليلات صيفها المفقود؟
والعشاء السخي في ليلة العرس وتقبيلة العروس الودود
وانتظار له على الباب:
«محمود، تأخرت يا أبا محمود
ناد محمود!»

ثم يوفي على الجمع بمنديل عرسه المعقود
نقطته الدماء يشهدن للخدر بعذراء، يا لها من شهود^٢
لا على العقم والردي، بل على الميلاد والبعث والشباب الجديد!

^١ جيكور قرية الشاعر في جنوب البصرة.

^٢ من التقاليد المتبعة في الريف العراقي أن يبرز العريس من ليلة العرس منديلًا ملطخًا بالدماء يشهد على أن العروس عذراء!

أي صوت يصيح: «محمود، محمود تأخرت!» كالنواح البعيد؟
أين محمود؟ ليس محمود في الدار ولا الحقل!
يا أبا محمود
ناد محمود كاد أن يهتف الديك وما زال جمعنا في الوصيد
قل له يبرز الدماء فأنا في انتظار لها وشوق مبيد!
ذرَّ نجم الصباح محمود، محمود، أأقبلت بالدم المنشود؟
أي جرح ينزُّ منه الدم الموار في باب دارك المرصود؟
إنه منك! منك هذا الدم التُّرُّ ومن جانب العروس القديد!
الصليب، الصليب! إنا رأيناه وقد مر كالخيال الشرود
قد رأيناه في الصباح وفي الليل سمعنا كقعقعات الرعود
أهو هذا الذي يريدون؟ أشلاءً وأنقاض منزل مهدود؟
أفما قامت الحضارات في الأرض كعنقاء من رماد اللهود؟
لا ولم تفرخ العقول على المجهول يسبرن فيه غور الوجود!
أو يشق العباب قلَّع يصك الريح صكًّا إلى البعيد البعيد؟
أو يلم النسيم عقدًا من النور ويذروه باقة من ورود
ساحرٌ فجرَ المدى عن مدى ملآن باللحن مترعٍ بالنشيد؟
أو تدق الأجراس: «يا أرض، يا بشراك بالحب والمسيح الوليد؟»
لا ولم يختم الزجاج على كل «هرقل»^٢ من العقار الأكيد
يخنق الموت كُلِّمًا هم بالناس ويجتاح كاسرات الأسود؟
لا ولا قيس بعد ما لفه الليل من الأرض واحتوى من حدود
بالذي قاس حافة الساعة القوراء في قرصها ذراعًا حديد؟
أو يفيض الظلام؟ إلا لكي تندك «جيكور» بالسلاح الجديد؟
كي يراها على اتساع المدى والشأو من ليس طرفه بالحديد؟
من وراء المحيط والليل والغابات والبيد والذرى والسود!
أين من شال «جين» أطمار «كلثوم»؟ وأن الغضا من الأركيد؟

^٢ هرقل الجبار، خنق الموت وذلل الأسود الكاسرة.

مرثية جيکور

فيم أسرى صحاب «جين» المغاوير إلى زوج «كلثم» المنكود؟
يا رماًداً تذرّه الززعج الشعثاء في مقلة القمير الوحيد
أنت «جيكور» كل جيکور: أحداق العذارى وباسلات الزنود
والرءوس التي حثا فوقهن الدهر ما في رجاه من تنكيد
صرد القمح من نثار لها اللون، ولم تحظ بالرغيف الوئيد
فهي صحراء تزفر الملح أهات وشكوى، لماثها الموءود!
خورس:٤

شيخ اسم الله ترللا
قد شاب ترلّ ترلّ ترار وما هلا
ترلل العيد ترللا
ترللا عرس «حمادي»
زغردن ترل ترللا
الثوب من الريبز ترللا
والنقش صناعة بغداد

* * *

إنها الريح! فاملئي الريح يا جيکور بالضك أو نثار الورد!
قطب الصمت حيث كانت أغانيك، وحيث العبير نتن الصديد
جاء قرنٌ وراح والمدن في ضوضاء، ما زلن من حساب النقود
ضاع صوت الضعاف فيها وأهات النين وابتهاال الطريد
واستحال الفضاء، من ضجة الآلات فيها ومن لهاث العبيد،
غير هذا الفضاء شيئاً لغير الآدميين، ربما للقرود
ربما للذئاب والدود والأدنى من الدود في الحضيض البليد!
ظل ذاك الضجيج كالجيفة الحبلى بما ليس غير عقم الولود
ثمة التّم في كرات من النار فألقى عليك صمت اللحد!
لا عليك السلام يا عصر «تعبان بن عيسى» وهنت بين العهود!

٤ يغني الخورس أغنيتين عراقيتين شعبيتين. «شيخ اسم الله» نبات كالحلفاء تؤكل أزهاره وهي في براعمها، وتتفتح عن سنابل تشبه الرءوس التي شابت.

ها هو الآن فحمة تنخر الديدانُ فيها فتتلظى من جديد
 ذلك الكائن الخرافي في جيكور، «هومير»^٥ شعبه المكدود
 جالس القرفصاء في شمس آذار وعيناه في بلاط «الرشيد»
 يمزغ التبغ والتواريخ والأحلام، بالشدق والخيال الوئيد
 ما تزال «البسوس» محمومة الخيل لديه، وما خبا من «يزيد»
 نار عينين ألقاها على «الشمر»^٦ ظللاً مذبحات الوريد!
 كلما لزَّ شمره الخيل أو عرى أبو زیده^٧ التحام الجنود
 شد راحًا وأطلق المغزل الدوار يدحوه للمدار الجديد!
 وانتهى من حديثه الضخم عن ضخ من الغزل، وانتهى من قعود
 نصف عريان يسحب الطرف عن صدرٍ تعرَّى وعن قميصٍ فقيد
 غير بقيا على قم دق حتى عن فَمِ العنكبوت، في رأس عود:
 مغزلٌ ينقض الذي حاكه النول، وجهد أضاع شتى جهود
 فهو كد وليس بالكد، أردى قبله اثنين وأدعى بالمزيد
 حاضر غير حاضر، منه للماضي فناء وللغد الموعود!
 لا عليك السلام يا عصر تعبان بن عيسى وهنت بين العهود
 أنت أيتمت كل روح من الماضي، وسودت آلة من حديد
 تسكب السم واللظى لا حليب الأم أو رحمة الأب المفقود:
 سلم في الحضيض أعلاه، مرقاه انخفاض وإن بدا كالصعود
 حدقت منه في الورى مقلتا «فوكاي» تستشرفان أيام «هود»
 والمسيح المبيع بخسًا بما لو بيع لحمًا لناء عن تسديد!
 حدّقي حيث شئت، يا عين فوكاي المدمّاة، من مداك المديد!
 فهي سوق تباع فيها لحوم الأدميين دون سلخ الجلود
 كل أفريقيًا وأسية السمرء، ما بين زنجها والهنود
 واشترى لحم كل من نطق الضاد تجار تبيعه لليهود!

^٥ هومير الشاعر الإغريقي الأعمى.

^٦ الشمر قاتل الحسين، وتصوره القصص مرتديًا ثيابًا حمر اللون.

^٧ أبو زيد الهلالي.

مرثية جيكور

هكذا قد أسفَّ من نفسه الإنسان وانهار كانهيار العمود
فهو يسعى وحلمه الخبز والأسمال والنعل واعتصار النهود!
والذي حارت البرية فيه^٨ بالتأويل، كائنٌ ذو نقود!

^٨ قال المعري:

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

تموز جيڪور

۱

ناب الخنزير يشق يدي
ويغوص لظاه إلى كبدي
ودمي يتدفق، ينساب
لم يغد شقائق أو قمحا
لكن ملحا
«عشتار» وتخفق أثواب
وترف حيالي أعشاب
من نعلٍ يخفق كالبرق
كالبرق الخُلب ينساب
لو يومض في عرقي
نورٌ، فيضيء لي الدنيا!
لو أنهض! لو أحيأ!
لو أسقي! أو لو أسقي!
لو أن عروقي أعناب!
وتقبل ثغري عشتار
فكأن على فمها ظلمه
تنثال علي وتنطبق

فيموت بعيني الألق
أنا والعتمة

٢

جيكور ستولد جيكور
النور سيورق والنور
جيكور ستولد من جرحي
من غصة موتي، من ناري
سيفيض البيدر بالقمح
والجرن سيضحك للصبح
والقرية دارًا عن دار
تتماوج أنغامًا حلوه
والشيخ ينام على الربوه
والنخل يوسوس أسراري
جيكور ستولد لكنّي
لن أخرج فيها من سجني
في ليل الطين الممدود
لن ينبض قلبي كاللحن
في الأوتار
لن يخفق فيه سوى الدود

٣

هيهات أتولد جيكور
إلا من خصة ميلادي؟
هيهات أينبتق النور
ودمائي تظلم في الوادي؟

أَيْسَقِسُقُ فِيهَا عَصْفُورٌ
وَلِسَانِي كَوْمَةٌ أَعْوَادُ؟
وَالْحَقْلُ؟ مَتَى يَلِدُ الْقَمْحَا
وَالْوَرْدُ، وَجِرْحِي مَفْغُورٌ
وَعِظَامِي نَاضِحَةٌ مِلْحًا؟
لَا شَيْءَ سِوَى الْعَدَمِ الْعَدَمِ
وَالْمَوْتِ هُوَ الْمَوْتِ الْبَاقِي
يَا لَيْلِ أَظْلَمَ مَسِيلَ دَمِي
وَلتَغْدُ تَرَابًا أَعْرَاقِي!
هِيَهَاتُ. أَتَوْلَدُ جِيكُورٌ
مَنْ حَقْدَ الْخَنْزِيرِ الْمَتَدَثِّرِ بِاللَّيْلِ
وَالْقَبْلَةَ بَرَعْمَةَ الْقَتْلِ
وَالغَيْمَةَ رَمْلَ مَنثورِ
يَا جِيكُورُ؟

جيكور والمدينة

وتلتف حولي دروب المدينة
حبلاً من الطين يمضغن قلبي
ويعطين، عن جمرة فيه، طينه
حبلاً من النار يجلدن عُزِّيَ الحقول الحزينه
ويحرقن جيكور في قاع روجي
ويزرعن فيها رماد الضغينه
دروب تقول الأساطير عنها
على موقدٍ نام ما عاد منها
ولا عاد من ضفة الموت سارٍ
كأن الصدى والسكينه
جناحا أبي الهول فيها، جناحان، من صخرة في تراها دفينه
فمن يفجر الماء منها عيوناً لتُبْنَى قُرَاناً عليها؟
ومن يرجع الله يوماً إليها؟

* * *

وفي الليل، فردوسها المستعاد
إذا عرش الصخر فيها غصونه
ورصّ المصابيح تُفاح نارٍ
ومدّ الحوانيت أواق تينه
فمن يشعل الحب في كل درب وفي كل مقهى وفي كل دار؟
ومن يرجح المخلب الآدمي يدًا يمسح الطفل فيها جبينه؟

وتخضلُّ من لمسها، من ألوهية القلب فيها، عروق الحجار؟
وبين الضحى وانتصاف النهار
إذا سبَّحت باسم رب المدينة
بصوت العصافير في سدرة يخلق الله منها قلوب الصغار
رحى معدن في أكفِّ التجار
لها ما لأسمك جيكور من لمعةٍ واسمها من معانٍ كثار
فمن يسمع الروح؟ من يبسط الظل في لافحٍ ومن هجير النضار؟
ومن يهتدي في بحار الجليد إليها فلا يستبيح السفينة؟
وجيكور، من غلق الدور فيها — وجاء ابنها
يطرق الباب — دونه؟
ومن حوّل الدرب عنها ... فمن حيث دارٍ اشْرأبت إليه المدينة؟
وجيكور خضراء مس الأصيل ذرى النخل فيها
بشمسٍ حزينه
يمد الكرى لي طريقاً إليها
من القلب يمتد، عبر الدهاليز، عبر الدجى والقلاع الحصينه ...
وقد نام في بابل الراقصون
ونام الحديد الذي يشحذونه
وغشى، على أعين الخازنين، لهاث النضار الذي يحرسونه
حصاد المجاعات في جنتيها
رحى من لظى مرّ دربي عليها
وكرم عساليجه العاقرات شرايين تموز عبر المدينة
شرايين في كل دارٍ وسجن ومقهى
وسجنٍ وبارٍ وفي كل ملهى
وفي كل مستشفيات المجانين
في كل مبغى لعشتار
يطلعن أزهارهن الهجينه
مصاييح لم يُسرج الزيت فيها وتمسسه نار
وفي كل مقهى وسجن ومبغى ودار:

«دمى ذلك الماء، هل تشربونه؟
ولحمي هو الخبز، لو تأكلونه!»
وتموز تبكيه لآة الحزينه

* * *

ترفع بالنواح صوتها مع السحر
ترفع بالنواح صوتها، كما تنهد الشجر
تقول «يا قطار، يا قدرُ
قتلت — إذا قتلته — الربيع والمطرُ»
وتنشر «الزمان» و«الحوادث» الخبر^١
ولآة تستغيث بالمضمّد، الحفر
أن يرجع ابنها يديه، مقلتيه، أيما أثر!
وترسل النواح: «يا سنابل القمُر
دم ابني الزجاج في عروقه انفجرُ
فكهرباء دارنا أصابت الحجرُ
وصكه الجدار، خضه، رماه لمحة البصرُ
أراد أن ينير، أن يبدد الظلام ... فاندحر»
وترسل النواح
ثم يصمت الوتر

* * *

وجيكور خضراء
مس الأصيل
زرى النخل فيها
بشمس حزينه
ودربي إليها كومض البروق
بدا واختفى ثم عاد الضياء فأذكاه حتى أثار المدينة
وعرى يدي من وراء الضماد كأن الجراحات فيها حروق

^١ واضح أن «الزمان» و«الحوادث» جريدتان.

أنشودة المطر

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابة

واحتوتها سكينه

فمن يخرق السور؟ من يفتح الباب؟ يدمي على كل قفل يمينه؟

ويمناي: لا مخلبٌ للصراع فأسعى بها في دروب المدينة

ولا قبضةٌ لابتعاث الحياة من الطين

لكنها محض طينه

* * *

وجيكور من دونها قام سورٌ

وبوابة

واحتوتها سكينه.

العودة لجيكور

١

على جواد الحُلم الأشهب
أسريت عبر التلال
أهرب منها، من ذراها الطوال
من سوقها المكتظ بالبائعين
من صباحها المتعب
من لينها النابح والعابرين
من نورها الغييب
من ربها المغسول بالخمير
من عارها المخبوء بالزهر
من موتها الساري على النهر^١
يمشي على أمواجه الغافية
أواه لو يستيقظ الماء فيه
لو كانت العذراء من واردة
لو أن شمس المغرب الدامية
تبتل في شطيه أو تشرق

^١ كان المسيح، في عهده، هو الذي مشى على الماء.

لو أن أغصان الدجى تورق
أو يوصد الماخور عن داخله

٢

على جواد الحُلم الأشهب
وتحت شمس المشرق الأخضر
في صيف جيكور السخي الثري
أسريت أطوي دربيّ النَّائي
بين الندى والزهر والماء
أبحث في الآفاق عن كوكب^٢
عن مولدٍ للروح تحت السماء
عن منبعٍ يُروِّي لهيب الظماء
عن منزلٍ للسائح المتعب

٣

جيكور، جيكور أين الخبز والماء؟
الليل وافي وقد نام الأدلاء؟
والركب سهران من جوع ومن عطش
والريح صرّ، وكل الأفق أصداء
بيداء ما في مداها ما يبين به
دربٌ لنا، وسماء الليل عمياء
جيكور مُدِّي لنا بابًا فندخله
أو سامرينا بنجمٍ فيه أضواء!

^٢ ... وبزغ كوكب عرف منه المجوس أن المخلص قد وُلد.

من الذي يسمع أشعاري؟
فإن صمت الموت في داري
والليل في ناري
من الذي يحمل عبء الصليب
في ذلك الليل الطويل الرهيب؟
من الذي يبكي ومن يستجيب
للجائع العاري؟
من يُنزل المصلوب عن لوحه؟
من يطرد العقبان عن جرحه؟
من يرفع الظلماء عن صبحه؟
ويبدل الأشواك بالغار؟^٣
أواه يا جيكور لو تسمعين!
أواه يا جيكور ... لو توجدين!
لو تنجين الروح، لو تُجهزين
كي يبصر الساري
نجمًا يضيء الليل للتائهين

نزعٌ ولا موت
نطقٌ ولا صوت
طلقٌ ولا ميلاد
من يصلب الشاعر في بغداد؟
من يشتري كفيه أو مقلتيه؟

^٣ وألبسوا المسيح تاجًا من الشوك ... سخريّةً به.

من يجعل الإكليل شوغًا عليه؟
جيكور يا جيكور
شدت خيوط النور
أرجوحة الصبح
فأولمي للطيور
والنمل من جرحي

* * *

هذا طعامي أيها الجائعون
هذي دموعي أيها البائسون
هذا دعائي أيها العابدون
أن يقذف البركان نيرانه
أن يرسل الفرات طوفانه
كي نشرق الظلمه
كي نعرف الرحمه
جيكور يا جيكور
شدت خيوط النور
أرجوحة الصبح
فأولمي للطيور
والنمل من جرحي!

٦

هذا حرائي^٤ حاكت العنكبوت
خيطةً إلى بابه

^٤ حراء، الغار الذي هبط فيه الوحي على النبي محمد، حين هاجر النبي إلى المدينة اختبأ — والمشركون جاندون في أثره — في غار حاكت العنكبوت بيتها على بابه فبدا مهجورًا، ولم يهتد المشركون إلى مخبأ محمد.

يهدى إليّ الناس إني أموت
والنور في غابه
يلقي دنانير الزمان البخيل
من شرفة في سعفات النخيل
جيكور، يا جيكور: خلّ وماء
ينساب من قلبي
من جُرْجِي الواري
من كل أغواري
أواه يا شعبي
جيكور، يا جيكور هل تسمعين؟
فلتفتحي الأبواب للفتحين
ولتَجْمَعِي أطفالك اللاعبين
في ساحة القرية هذا العشاء
هذا حصاد السنين
الماء خمّر، والخوابي غذاء[°]
هذا ربيع الوباء

٧

أقوى من الأسوار هذا الجواد:
«أقوى جواد الحلم الأشهب»
لأن الحديد المغتذي بالحداد
وانخذل الموكب
جيكور، ماضيك عاد
هذا صياح الديك ذاب الرقاد

[°] ... وأحال المسيح الماء إلى خمّر فشرب الحاضرون.

وعدت من معراجي الأكبر
الشمس أم السنبل الأخضر
خلف المباني، رغيفٌ
لكنها في الرصيفُ
أغلى من الجواهر
والحب «هل تسمعين
هذا الهتاف العنيف؟
ماذا علينا؟ إن عبد اللطيف^٦
يدري بأننا ... ما الذي تحذرين؟»
وانخطفت روعي، وصاح القطاؤُ
ورقرقت في مقلتي الدموعُ
سحابةً تحملني، ثم سار
يا شمس أيامي، أما من رجوع؟

* * *

جيكور، نامي في ظلام السنين.

^٦ اقرأ مذكراتي «كنت شيوعياً» المنشورة في جريدة الحرية العراقية.

رؤيا في عام ١٩٥٦

١

حطت الرؤيا على عينيَّ صقرًا من لهيب
إنها تنقضُّ، تجتث السواد
تقطع الأعصاب تمتص القذى من كل
جفنٍ، فالمغيَّبُ
عاد منها توأمًا للصبح أنهار المداوُ
ليس تظفي غلة الرؤيا: صحارى من نحيبٍ
من جحور تلفظ الأشلاء، هل جاء المعادُ؟
أهو بعثٌ، أهو موتٌ، أهي نار أم رماذُ؟
أيها الصقر الإلهي الغريب
أيها المنقضُّ من أولب في صمت المساء
رافعًا رُوحِي لأطباق السماء
رافعا رُوحِي غنيميدًا^١ جريحا
صالبا عينيَّ تمورًا مسيحا

^١ غنيميد: راع يوناني شاب وقع زيوس كبير آلهة الأولب الإغريقي في حبه، فأرسل صقرًا اختطفه وطار به إليه.

أيها الصقر الإلهي ترفقُ
إن روحي تتمزق
إنها عادت هشيماً يوم أن أمسيت ريحاً

* * *

في غيمة الرؤيا
يوم بلا ميعاد
جنكيز هل يحيا
جنكيز في بغداد؟
عينُ بلا أجفانُ
تمتد من روحي
شدقُ بلا أسنانُ
ينداح في الريح
يعوي أنا الإنسانُ

٢

يا جواداً راکضاً يعدو على جسمي الطريح
يا جواداً ساحقاً عيني بالصخر السنابك
رابطاً بالأربع الأرجل قلبي
فإذا بالنبض نقرُ للدراك
وإذا بالنار دربي
سحّت الرؤيا ضياء من لظاها
صابغاً ما تبصر العين القريح
مازجاً بالشيء ظلّه
خالطاً فيها يهوذا بالمسيح
مُدخلاً في اليوم ليلهُ
بانياً في عروة المهذ الضريح
الدماء

الدماء

الدماء

وحدت بالمجرمين الأبرياء
نصبت في شدقي الذئبة كرسى القضاء
ماذا جنى شعبي؟
حلّت به اللعنة
من زاده المحنة
رحماك يا ربي
من مائه الديدان
من لبسه الأكفان
من طيره الغربان
ينقرن في قلبي
واليوم في بيدري
لم يبق من حبي
شيء هنا حبتان
فأمطري أمطري
وإن يكن نيران
وأثمري أثمري
وإن يكن ثعبان

٣

ما الذي يبدو على الأشجار حولي من ظلال؟
منجلٌ يجتثُ أعراق الدوالي
قاطعاً أعراق تموز الدفينه
وعلى القنب أشلاء حزينه
رأس طفلٍ سابع في دمه
نهد أم تنقر الديدان فيه، في سكينه

أي آه من دمٍ في فمه؟
ما الذي ينطف من حلمته، من لحمه؟
يا حبال القنب التَّقِي كحيات السعير
واخنقي روحي وخلي الطفل والأم الحزينه؟
يا حبالاً تسحب الموتى إلى قبرٍ كبير
جفنةٍ قد هيئتُها للوليمه
يا حبالاً تسحب الأحياء من شيخٍ كبير
من فتاةٍ أو عجوزٍ، من ضلوعٍ حطموها
علقت فيها تميمه
من صدور مزقوها
زرعوا فيها بذوراً من رصاصٍ، من حديد
ما الذي تثمر هاتيك البذور
غير أحجار القبور؟
غير تفاح الصديد؟

٤

تموز هذا، أتيس^٢
هذا، وهذا الربيع
يا خبزنا يا أتيس
أنبت لنا الحب وأحَي اليبيس
التأم الحفل وجاء الجميع
يقدمون النذور
يحيون كل الطقوس

^٢ أتيس يقابل تموز الإله البالي عند سكان آسيا الصغرى القدماء، يُحْتَفَلُ بِعِيدِهِ فِي الرَّبِيعِ، حَيْثْ يَرْبِطُ تَمَثَالَهُ عَلَى سَاقِ شَجَرَةٍ. وَحِينَ تَبْلُغُ الْحَمِيَّةُ أَوْجَهَا عِنْدَ أَتْبَاعِهِ وَعَابِدِيهِ، يَجْرَحُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالسِّيُوفِ وَالْمُدَى حَتَّى تَسِيلَ دِمَاؤُهُمْ قَرْبَانًا دَلَالَةً الْخَصْبِ.

ويبذرون البذور
سيقان كل الشجر
ضارعة، والنفوس
عطشى تريد المطر
شدوا على كل ساق
يا رب، تمثالكُ
فلتسق كل العراقُ
فلتسق فلاحيك، عمالك
شدوا على كل ساق
أواه، ما شدوا؟
أواه، ما سمروا؟
أغصان زيتوننا أثقلها الورد
ورد الدم، الأحمر
شدوا على كل ساقُ
يا رب تمثالك
فاسمُ صلاة الرفاق
ولترع فلاحيك، عمالك
تمثالك البعل
تمثالك الطفل
تمثالك العذراءُ
تمثالك الجانون والأبرياء
تمثالك الأم الشماليَّة
لأنها ليست شيوعيَّة
يُقطِّع نهداها
تُسمَل عيناها
تُصلبُ صلْباً فوق زيتونهُ
تهزها الريح الجنوبيَّة
تمثالك الآلاف، مجنونهُ

من رعبها، تمثالك الأحمر
كأنه الشقيق^٣ إذ يزهر

٥

عشتار^٤ على ساق الشجره
صلبوها، دقوا مسمارًا
في بيت الميلاد الرَّجِم
عشتار بحفصة^٥ مستتره
تُدعى لتسوق الأمطارا
تدعى لتُسَاقَ إلى العدم
عشتار العذراء الشقراء مسيل دَمٍ
صلُّوا هذا طقس المطر
صلوا هذا عصر الحجر
صلوا، بل أصلوها نارا
تموز تَجَسَّدَ مسمارا
من حفصة يخرج والشجره
النهد الأعذر فاض ليُطعمَ كل فم
خبز الألم
«الأفة» صاح القصاب:
«من هذا اللحم بفلسين»
اقطع من لحم النهدين
اللحم لنا، والأثواب
ستكون لمسح السكِّينه

^٣ في الأساطير البابلية أن دم تموز القتل أصبح شقائق.

^٤ إلهة الخصب والحب عند البابليين، وهي حبيبة تموز.

^٥ حفصة إحدى شهيدات مذبحه الموصل.

من آثار دم الأطفال
من آثار دم المسكينه
فتلحي زنود العمال
في قلبي دمدم زلزال
فجنائن بابل تندثر
في قلبي يصرخ أطفال
في قلبي يختنق القمر
الظلمة تعبس في قلبي
والجو رصاص
والرياح تهب على شعبي
والرياح رصاص
أواه لقد هجم التتر
فالصبح رصاص
والليل رصاص

٦

الرؤيا تلمح كالقلع
في بحر يُزِيدُ غضبانا
طورًا للأغوار وأحياننا
يعلو فنراه، وفي سمعي
أصداء تصمت أو تعلق
وبياني يغمض أو يجلو

* * *

أيُّ حشد من وجوه كالحات
من أكفُّ كالتراب
نبتها الآجرُّ والفولان كالأرض اليباب؟
أي حشدٍ من نئاب؟

يطعمون الجو ريح المعمل؟
أي نعش، أي شكوى، أي دمعٍ من نساء ثاكلات؟
أي جمعٍ من عذارى نادبات
أي موتٍ مثكل
يا لعشاراتنا يبكين تموز القتيل

* * *

العازر قام من النعش
شخنوب^٦ العازر قد بعثا
حيًا يتقافز أو يمشي
كم ظل هناك وكم مكثا
أترى عامًا أم عامين؟
أم دامت ميته ساعه؟
شخنوب العامل، من راعه؟
فتنكر للدينارين
وتواثب يركض مذعورًا؟
الموت الزائف خاتمة
لحياة زائفة مثله
والبعث الزائف عاقبة
للموت الزائف من قبله

^٦ العازر الميت الذي أحياه المسيح من قبره، وشخنوب هو عامل السمنت الذي استأجره الفوضويون، فتظاهر بالموت وحملوه في النعش تشهيرًا بالجيش «الذي يقتل العمال» كما قالوا، ثم قام ماشيًا حين سقط النعش.

٧

ولفني الظلام في المساء
فامتصت الدماء
صحراءُ نومي تنبت الزهر
فإنما الدماء
توائم المطر.

قارئ الدم

أنا أيها الطاغوت مقتحم الرتاج على الغيوب
أبصرت يومك وهو يأزف
هذه سحب الغروب
يتوهج الدَّمُ في حفافِها وتنتثر في الدروب
شفق البنفسج والورود ولون أردية الضحايا
فتشع أعمدة عوابس، والرصيف من الصبايا
والنسوة المتهامسات كحقل قمح، والسطوح
كأن بابل أودعتها من جنائنها بقايا
لو أن غرساً كان من بشر، وأسمع من يصيح:
«هو ذا يساق إلى الحساب..» كأن أعراق المغيب
قطعت فصاح، كأن صوتاً على لظى حملته ريح
من كل أودية الجحيم، هواه ...

* * *

إنني شهدت سواك ينسفه اختناقاً للصدور
بغيتها، وسمعت قفقفة الضحايا في القبور
ودم الحوامل وهو تشربه الأجنحة في دجاها
فسمعت وقع خطاك خائفة تجر إلى السعير
حطام جسمك، والسعير مُدَى تراها
تحتز من قصبات صدرك تُأر كل دم العصور
إنني أكلت مع الضحايا في صحافٍ من دماء

وشربت ما ترك الفم المسلول منه على الوعاء
وشممت ما سلخ الجذام من الجلود على رائي
ونشقت ماء جوارب السجناء في نفس الهواء
فشممت فيه دخان دارك واحتراق بنيك فيها
وشواء لحم بنيك، لولا أن شيمة محرقها
ألا يذوق الأبرياء جزاء غير الأبرياء
إني شببت مع الجياع، مع الملايين الفقير
فعرفت أسراراً كثيرة
كل اختلاجات القلوب وكل ألوان الدعاء
إغضاءة المقل الضريره
يتطلع الدّم في ظلام جفونهن إلى الضياء
والحاملات نذورهنّ إلى قبور الأولياء
الموقدات شموعهن تلق ألسنها الكثيرة
كسر الرغيف ويعتصرن دم الثدي إلى الذماء
وتأوه المستنقعات وزفة البردي فيها
وطنين أجنحة البعوض كأن غرقى ساكنها
يتنفسون من القرار ويضرعون إلى السماء
أن ينجو الأطفال من غرق وحمى في الهواء
وملاة الأكواخ تشرب كل أمطار الشتاء
حتى تغص بها فللقصب النقيع بكل ماء
شهقات محتضر يُغر وإن تقياً بالدواء
وتنهد الأشجار عطشى يابسات في الظهير
تنكسر الورقات فيها والمناقير الصغيرة
فكأن مقبرة الهجير
تمتص من رحم الحياة لتسقي الموتى عصيره

* * *

أنا قارئ الدم لا تراه وأنت أنت المستبيح
أفلمت تجرؤ أن تحرق فيه علك تستريح

من ازدياد دمٍ تذر على جفونك منه نار
لزوج يسلم مع الرقاد كأن بؤبؤك الذبيح؟
قاييل حدق في دماء أخيه أمس
وأنت يأخذك الدواؤ
من رؤية الدم وهو ينزف ثم يركد فالغبار
من تحته كغم الرضيع له اختلاج وافترار
أتخاف أن تطأ النبوءة مقلتيك «هو الدمار»
أتخاف منها أن تفر كأن سرب قَطاً يثار
فأنت مع هلع تخض إلى المشاش «هو الدمار»
إني خبرت الجوع يعصر من دمي ويمص مائي
وعرفت ما قلق الطريد يكاد كل فم ورائي
يعوي بـ «ها هو ذا» وتوشك كل عين ألتقيها
أن يومض اسمي في قرارتها وجهلي بالدروب
ولست أسأل عابريها عن بعيدٍ عن قريب
من منتهاها واكتئابي والحنين مع الغروب
وتوقع المتعقبين خطاي أحسب في صداها
وقع الخطى وأكاد ألتفت التفاتة مستريب
ألا تشد يدُ على كتفي وأوشك أن أراها
أعرفت ذاك؟ فسوف تعرف منه دنيا في مداها
تصطف أعمدة عوابس ثم تسمع من يصيح:
«هو ذا يساق إلى الحساب.» كأنما اطَّرحت رداها
جثثُ القبور، كأن صوتاً من لظى حملته ريح
من كل أودية الجحيم هوا ... ه!

ثعلب الموت

كم يمضُ الفؤاد أن يصبح الإنسان صيداً لرمية الصياد؟
مثل أي الطباء، أي العصافير، ضعيفاً
قابعاً في ارتعادة الخوف، يختص ارتياعاً؛ لأن ظلّاً مخيفاً
يرتمي ثم يرتمي في اثئاد
ثعلب الموت، فارس الموت، عزرائيل يدنو ويشحد
النصل آه

منه آه، يصك أسنانه الجوعى ويرنو مهدداً يا إلهي
ليت أن الحياة كانت فناء
قبل هذا الفناء، هذي النهاية
ليت هذا الختام كان ابتداء
وا عذاباه، إذ ترى أعين الأطفال هذا المههدد المستبيحاً
صابغاً بالدماء كفيه، في عينيه نارٌ وبين فكيه نار
كم تلوّت أكفهم واستجاروا
وهو يدنو ... كأنه احتث ريحاً
مستبيحاً

مستبيحاً، مهدداً، مستبيحاً
من رآها، دجاجة الريف، إذ يسمي عليها المساء في بستانه؟
حين ينسلُّ نحوها الثعلب الفرّاس، يا للصريف من أسنانه!
وهي تختص، شلها الرعب، أبقاها بحيث الردي
كأن الدروب

أنشودة المطر

استلها مارء؁ كأن النيويا
سور بغداد موصد الباب؁ لا منجى لديه ولا خلاصٌ ينال
هكذا نحن حينما يقبل الصياد عزريل
رجفةً فاغتياال.

المبغى

بغداد؟^١ مبغى كبير:
«لواظ المغنية
كساعة تتك في الجدار
في غرفة الجلوس في محطة القطار»
يا جثةً على الثرى مستلقيه
الدود فيها موجةً من اللهب والحريير

* * *

بغداد كابوس: «ردى فاسد
يجرعه الراقد
ساعاته الأيام، أيامه الأعوام، والعام نيز
العام جرح ناغر في الضمير»

* * *

عيون المها بين الرصافة والجسر
ثقوب رصاص رقت صفحة البدر
ويسكب البدر على بغداد
من ثقبى العينين شلاً من الرماد
الدور دار واحدة

^١ كتبت في العهد المباد.

وتعصر الدروب، كالخيوط، كلها
في قبضةٍ ماردهُ
تمطها، تشلها
تحيلها درباً إلى الهجير
وأوجه الحسان كلهن وجه «ناهده»:
«حبيبتى التى لعبها عسل
صغيرتى التى أردافها جبل
وصدرها قلل»

* * *

ونحن في بغداد؟ من طين
يعجنه الخزّاف تمثالاً
دنيا كأحلام المجانين
ونحن ألوانٌ على لُجّها المرتج أشلاءً وأوصالاً

* * *

بالأمس كان العيد، عيد الزهورِ
الزاد تحثوه الربى، والخمورِ
والرقص، والأغنيات
والحب، والكركرات
ثم انتهى إلا بقايا طيور
تلتقط الحَبَّ، وإلا دماء
مما نماه الحقل، طيرٌ وشاء
وغير أطفال يطوفون أور:

* * *

«العيد، من قال انتهى عيدنا؟
فلتملاً الدنيا أناشيدنا
فالأرض ما زالت بعيدٍ تدور ...»
بالأمس كان العيد، عيد الزهور

المبغى

واليوم ما نفعل؟

نزرع أم نقتل؟

* * *

أهذه بغداد؟

أم أن عاموره

عادت فكان المعاد

موتاً؟ ولكنني في رنة الأصفاد

أحسست ... ماذا؟ صوت ناعوره

أم صيحة النسغ الذي في الجذور؟

النهر والموت

١

بُويِب

بُويِب

أجراس برج ضاع في قرارة البحر
الماء في الجرار، والغروب في الشجر
وتنضح الجرار أجراساً من المطر
بلورها يذوب في أنين

«بويب يا بويب!»

فيدلهم في دمي حنين

إليك يا بويب

يا نهري الحزين كالمطر

أودُّ لو عدوت في الظلام

أشد قبضتي تحملان شوق عام

في كل إصبع، كأني أحمل النذور

إليك، من قمحٍ ومن زهور

أود لو أُطلُّ من أسيرة التلال

لألح القمر

يخوض بين ضفتيك، يزرع الظلال

ويملاً السلال

بالماء والأسماك والزهر
أودُّ لو أخوض فيك، أتبع القمر
وأسمع الحصى يصل منك في القرار
صليل آلاف العصافير على الشجر
أغابة من الدموع أنت أم نهر؟
والسمك الساهر هل ينام في السحر؟
وهذه النجوم، هل تظل في انتظارٍ
تطعم بالحرير آلفاً من الإبر؟
وأنت يا بويب
أود لو غرقت فيك، ألقط المحار
أشيد منه دار
يضيء فيها خضرة المياه والشجر
ما تنضح النجوم والقمر
وأغتدي فيك مع الجَزْرِ إلى البحر!
فالموت عالمٌ غريبٌ يفتن الصغار
وبابه الخفي كان فيك، يا بويب

٢

بويب يا بويب
عشرون قد مضين، كالدهور كل عام
واليوم، حين يطبق الظلام
وأستقر في السرير دون أن أنام
وأرهب الضمير: دوحةً إلى السحر
مرهفة الغصون والطيور والثمر
أحسُّ بالدماء والدموع كالمطر
ينضحهن العالم الحزين
أجراس موتى في عروقي ترعش الرنين

فيدلهم في دمي حنين
إلى رصاصية يشق ثلجها الزؤامُ
أعماق صدري كالجحيم يشعل العظام
أود لو عدوت أعضد المكافحينُ
أشد قبضتي ثم أصفعُ القدرُ
أود لو غرقت في دمي إلى القرار
لأحمل العبء مع البشر
وأبعث الحياة. إن موتى انتصار!

المسيح بعد الصلب

بعدهما أنزلوني، سمعت الرياح
في نواحٍ طويلٍ تسف النخيلُ
والخطى وهي تنأى إذن فالجراحُ
والصليب الذي سمروني عليه طوال الأصيلُ
لم تُمَنِّي. وأنصتُ كان العويلُ
يعبر السهل بيني وبين المدينةُ
مثل حبل يشد السفينهُ
وهي تهوي إلى القاع كان النواح
مثل خيط من النور بين الصباح
والدجى في سماء الشتاء الحزينهُ
ثم تغفو على ما تحس المدينةُ

* * *

حينما يزهر التوت والبرتقالُ
حيث تمتد «جيكور» حتى حدود الخيالُ
حين تخضر عشبًا يغني شذاها
والشموس التي أرضعتها سناها
حين يَحْضُرُ حتى دجاها
يلمس الدفء قلبي، فيجري دمي في ثراها
قلبي الشمس إذ تنبض الشمس نورًا
قلبي الأرض، تنبض قمحًا وزهرًا وماءً نميرًا

قلبي الماء، قلبي هو السنبل
موته البعث يحيا بمن يأكل
في العجين الذي يستدير
ويُدْحَى كنهْدٍ صغير، كئدي الحياهُ
مت بالنار أحرقت ظلماء طيني، فظل الإلهُ
كنت بدءاً، وفي البدء كان الفقير
متُّ، كي يؤكل الخبز باسمي، لكي يزرعوني مع الموسم
كم حياة سَاحيا ففي كل حفرة
صرتُ مستقبلاً، صرتُ بذرة
صرتُ جيلاً من الناس، في كل قلبٍ دمي
قطرةً منه أو بعض قطرة

* * *

هكذا عدت، فاصفر لما رأيي يهوذا
فقد كنت سِرَّة
كان ظللاً، قد اسودَّ مني، وتمثال فكره
جُمِدت فيه واستلَّت الروح منها
خاف أن تفضح الموت في ماء عينيه ...
(عيناه صخره)
راح فيها يوارى عن الناس قبره)
خاف من دفنِها، من محالٍ عليه، فخبَّر عنها:
«أنت؟ أم ذاك ظلي قد ابيضَّ وارفَضَّ نوراً؟
أنت من عالم الموت تسعى؟ هو الموت مره
هكذا قال آباؤنا، هكذا علمونا، فهل كان زوراً؟»
ذاك ما ظن لما رأيي، وقالته نظره

* * *

قدمُ تعدو، قدمُ قدمُ
القبر يكاد بوقع خطاها ينهدم
أترى جاءوا؟ من غيرهم؟

قدمٌ ... قدمٌ ... قدمٌ
ألقيت الصخر على صدري
أوما صلبوني أمس؟ ... فما أنا في قبري
فليأتوا. إني في قبري
من يدري أنني...؟ من يدري؟!
ورفاق يهوذا! من سيصدق ما زعموا؟
قدمٌ قدمٌ
ها أنا الآن عريان في قبري المظلم
كنت بالأمس ألتف كالظن، كالبرعم
تحت أكفاني الثلج يخضل زهر الدم
كنت كالظل بين الدجى والنهارُ
ثم فجرت نفسي كنوزًا فعريتها كالثمارُ
حين فصلت جيبي قماطًا وكُمِّي دثارُ
حين دفأت يومًا بلحمي عظام الصغار
حين عريت جرحي، وضمدت جرحًا سواه
حطم السور بيني وبين الإله

* * *

فاجأ الجند حتى جراحي ودقات قلبي
فاجأوا كل ما ليس موتًا وإن كان في مقبره
فاجتوني كما فاجأ النخلة المثمره
سرب جوعى من الطير في قرية مقفره

* * *

أعين البندقيات يأكلن دربي
شرعُ تحلم النار فيها بصلبي
إن تكن من حديدٍ ونازٍ، فأحداق شعبي
من ضياء السماوات، من ذكرياتٍ وحب
تحمل العبء عني فيندى صليبي، فما أصغره
ذلك الموت، موتي، وما أكبره!

أنشودة المطر

* * *

بعد أن سمروني وألقيت عيني نحو المدينة
كدت لا أعرف السهل والسهل والمقبره
كان شيء، مدى ما ترى العين
كالغابة المزهرة
كان في كل مرمى، صليبٌ وأمّ حزينه
قُدّسَ الرَّبُّ!
هذا مخاض المدينة.

مدينة السندباد

١

جوعان في القبر بلا غذاء
عريان في الثلج بلا رداء
صرخت في الشتاء
أقض يا مطر
مضاجع العظام والثلوج والهباء
مضاجع الحجر
وأنبت البذور، ولتفتح الزهر
وأحرق البيادر العقيم بالبروق
وفجر العروق
وأثقل الشجر
وجئت يا مطر
تفجرتُ تنثك السماء والغيومُ
وشقق الصخر
وفاض من هباتك الفراتُ واعتكر
وهبت القبور، هُزَّ موتها وقام
وصاحت العظام
تبارك الإله، واهب الدم المطر
فآه يا مطرًا!

نود لو ننام من جديد
نود لو نموت من جديد
فنومنا براعم انتباه
وموتنا يخبيء الحياه
نود لو أعادنا الإله
إلى ضمير غيبه الملبّد العميق
نود لو سعى بنا الطريق
إلى الوراء، حيث بدؤه البعيد
من أيقظ «العازر» من رقاده الطويل؟
ليعرف الصباح والأصيل
والصيف والشتاء
لكي يجوع أو يحس جمرة الصدى
ويحذر الردى
ويحسب الدقائق الثقال والسّراع
ويمدح الرعاع
ويسفك الدماء!
من الذي أعادنا، أعاد ما نخاف؟
من الإله في ربوعنا؟
تعيش ناره على شموعنا
يعيش حقه على دموعنا

٢

أهذا أدونيس، هذا الحواء؟
وهذا الشحوب، وهذا الجفاف؟
أهذا أدونيس، أين الضياء؟
وأين القطاف؟
مناجل لا تحصد

أزاهر لا تعقد
مزارع سوداء من غير ماء!
أهذا انتظار السنين الطويلة؟
أهذا صراخ الرجولة؟
أهذا أنين النساء؟
أدونيس! يا لاندحار البطولة
لقد حطم الموت فيك الرجاء
وأقبلت بالنظرة الزائغة
وبالقبضة الفارغة
بقبضة تهدد
ومنجل، لا يحصد
سوى العظام والدم
اليوم؟ والغد؟
متى سيولد؟
متى سنولد؟

٣

الموت في الشوارع
والعقم في المزارع
وكل ما نحبه يموت
الماء قيده في البيوت
وألهث الجداول الجفاف
هُمُ التتار أقبلوا، ففي المدى رعافُ
وشمسنا دمٌ، وزادنا دمٌ على الصحافُ
محمد اليتيم أحرقوه فالمساء
يضيء من حريقه، وفارت الدماء
من قدميه، من يديه، من عيونهُ

وأحرق الإله في جفونه
محمد النبي في «حراء» قيدوه
فُسْمَرَ النهار حيث سمروه
غداً سيصلب المسيح في العراق
ستأكل الكلاب من دم البراق^١

٤

يا أيها الربيع
يا أيها الربيع ما الذي دهاك؟
جئت بلا مطر
جئت بلا زهر
جئت بلا ثمر
وكان منتهاك مثل مبتدأك
يلفه النجيع ...
وأقبل الصيف علينا أسود الغيوم
نهاره هموم
وليله نسهر فيه نحسب النجوم
حتى إذا السنابل
نضجن للحصاد
وغنت المناجل
وغطت البيادر الوهاد
خُيِّلَ للجياح أن ربة الزهر
عشتار، قد أعادت الأسير للبشر
وكللت جبينه الغضير بالثمر
خيل للجياح أن كاهل المسيح

^١ الجواد الذي أسرى عليه النبي محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلة معراجة.

أزاح عن مدفنه الحجر
فسار يبعث الحياة في الضريح
ويبرئ الأبرص أو يجدد البصر؟
من الذي أطلق من عقالها الذئب؟
من الذي سقى من السراب؟
وخبأ الوباء في المطر؟
الموت في البيوت يولد
يولد قابيلُ لكي ينتزع الحياة
من رحم الأرض ومن منابع المياه
فيظلم الغد
وتجهض النساء في المجازر
ويرقص اللهيب في البيادر
ويهلك المسيح قبل العازر
دعوه يرقد
دعوه فالمسيح ما دعاه!
ما تبتغون! لحمه المقدس
يباع في مدينة الخطأ
مدينة الحبال والدماء والخمور
مدينة الرصاص والصخور!
أمس أزيح من مداها فارس النحاس
أمس أزيح فارس الحجر
فران في سمائها النعاس
ورنق الضجر
وجال في الدروب فارسٌ من البشر
يقتل النساء
ويصبغ المهود بالدماء
ويلعن القضاء والقدر!

كأن بابل القديمة المسورة
تعود من جديد
قبابها الطوال من حديد
يدق فيها جرس كأن مقبره
تئن فيه، والسماء ساح مجزره
جنانها المعلقات زرعها الرءوس
تجزها قواطع الفتوس
وتنقر الغربان من عيونها
وتغرب الشمس
وراء شعرها الخصب في غصونها
أهذه مدينتي؟ أهذه الطلول
خُطَّ عليها: «عاشت الحياه»
من دم قتلها، فلا إله
فيها، ولا ماء، ولا حقول؟
أهذه مدينتي؟ خناجر التتر
تُغمد فوق بابها، وتلهث الفلاه
حول دروبها، ولا تزورها القمر؟
أهذه مدينتي أهذه الحُفر
وهذه العظام؟
يطل من بيوتها الظلام
وتُصبغ الدماء بالقتام
لكي تضيع، لا يراها قاطع الأثر؟
أهذه مدينتي؟ جريحة القباب
فيها يهوذا أحمر الثياب
يسلُّ الكلاب
على مهود إخوتي الصغار ... والبيوت
تأكل من لحومهم وفي القرى تموت

عشتار عطشى، ليس في جبينها زهر
وفي يديها سلة ثمارها حجر
ترجم كل زوجة به وللنخيل
في شطها عويل.

أنشودة المطر

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء ... كالأقمار في نهر
يرجُّه المجذاف وهناً ساعة السحر
كأنما تنبض في غوريهما، النُّجوم

* * *

وتغرقان في ضبابٍ من أسي شفيف
كالبحر سرح اليدين فوقه المساء
دفع الشتاء فيه وارتعاشة الخريف
والموت، والميلاد، والظلام، والضياء
فتستفيق ملء رُوحِي، رعشة البكاء
ونشوةٌ وحشيةٌ تعانق السماء
كنشوة الطفل إذا خاف من القمر!
كأن أقواس السحاب تشرب الغيوم
وقطرةً فقطرةً تذوب في المطر
وكركر الأطفال في عرائش الكروم
ودغدغت صمت العصافير على الشجر
أنشودة المطر

مطر

مطر

مطر

تثاءب المساء، والغيوم ما تزال
تسحُّ ما تسحُّ من دموعها الثقالُ
كأن طفلاً بات يهذي قبل أن ينام
بأن أمه التي أفاق منذ عام
فلم يجدها، ثم حين لج في السؤال
قالوا له: «بعد غدٍ تعود»

لا بد أن تعود

وإن تهامس الرفاق أنها هناك
في جانب التل تنام نومة اللحد
تسف من ترابها وتشرّب المطر
كأن صياداً حزيناً يجمع الشّبّاك
ويلعن المياه والقدر
وينثر الغناء حيث يأفل القمر

مطر

مطر

أتعلمين أي حزنٍ يبعث المطر؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياح؟
بلا انتهاء — كالدّم المراق، كالجياح
كالحب كالأطفال، كالموتى — هو المطر!

ومقلتك بي تطيفان مع المطر
وعبر أمواج الخليج تمسح البروقُ
سواحل العراق بالنجوم والمطار
كأنها تهم بالشروق
فيسحب الليل عليها من دمٍ دثارُ
أصبح بالخليج: «يا خليج

يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والرديء!
فيرجع الصدى
كأنه النشيج:
«يا خليج
يا واهب المحار والرديء»

* * *

أكاد أسمع العراق يذخر الرعود
ويخزن البروق في السهول والجبال
حتى إذا ما فض عنها ختمها الرّجال
لم تترك الرياح من ثمود
في الوادِ من أنثر
أكاد أسمع النخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تن، والمهاجرين
يصارعون بالمجازيف وبالقلوع
عواصف الخليج، والرعود، منشدين:
«مطر»

مطر

مطر

وفي العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوان والحجر
رعى تدور في الحقول حولها بشر

مطر

مطر

مطر

وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموع
ثم اعتلنا — خوف أن نلام — بالمطر

مطر

مطر

ومنذ أن كنا صغارًا، كانت السماء

تغيم في الشتاء

ويهطل المطر

وكل عام — حين يعشب الثرى — نجوع

ما مرَّ عامٌ والعراق ليس فيه جوع

مطر ...

مطر

مطر

في كل قطرةٍ من المطر

حمرءٌ أو صفراءٌ من أجنَّةِ الزَّهر

وكل دمعَةٍ من الجياح والعراة

وكل قطرةٍ تُراق من دم العبيدُ

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسمٍ جديدُ

أو حُلْمَةٌ توردت على فم الوليدُ

في عالم الغد الفتى، واهب الحياة!

مطر

مطر

مطر

سيعشب العراق بالمطر»

* * *

أصبح بالخليج: «يا خليج

يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى!»

فيرجع الصدى

كأنه النشيج:

«يا خليج

يا واهب المحار والردى»

وينثر الخليج من هباته الكثائرُ
على الرمال، رغوهُ الأجاج، والمحارُ
وما تبقى من عظام بائسٍ غريق
من المهاجرين ظل يشرب الردى
من لجة الخليج والقرار
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق
من زهرة يربها الفرات بالندى
وأسمع الصدى
يرن في الخليج:

«مطر»

مطر

مطر

في كل قطرةٍ من المطر
حمراء أو صفراء من أجنة الزهر
وكل دمعة من الجياح والعراة
وكل قطرة تُراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مبسمٍ جديد
أو حلمةٌ توردت على فم الوليد
في عالم الغد الفتيّ، واهب الحياة»

* * *

ويهطل المطر.

سربروس في بابل

ليعو سربروس^١ في الدروب
في بابل الحزينة المهدمه
ويملاً الفضاء زمزمه
يمزق الصغار بالنيوب، يقضم العظام
ويشرب القلوب
عيناه نيزكان في الظلام
وشدقه الرهيب موجتان من مدى
تخبئ الردى
أشداقه الرهيبة الثلاثة احتراق
يؤج في العراق
ليعو سربروس في الدروب
وينبش التراب عن إلهنا الدفين
تموزنا الطعين
يأكله يمص عينيه إلى القرار
يقضم صلبه القوي، يحطم الجرار
بين يديه، ينثر الورود والشقيق

^١ الكلب الذي يحرس مملكة الموت، في الأساطير اليونانية، حيث يقوم عرش «برسفون» آلهة الربيع بعد أن اختطفها إله الموت. وقد صورته دانتي في «الكوميديا الإلهية» حارساً ومعدباً للأرواح الخاطئة.

أواه لو يفيقُ
إلهنا الفتيُّ، لو يبرعم الحقولُ
لو ينثر البيارد النضار في السهولُ
لو ينتضي الحسام، لو يفجر الرعود والهروق والمطرُ
ويطلق السيول من يديه آه لو يئُوب!
لِحافنا التراب، فوقه من القمر
دمٌ، ومن نهود نسوة العراق طينُ
ونحن إذ نبصُّ من مغاور السنينُ
نرى العراق، يسأل الصغار في قراه:
«ما القمح؟ ما الثمر؟»
ما الماء؟ ما المهود؟ ما الإله؟ ما البشر؟
فكل ما نراه
دمٌ ينز أو حبالٌ، فيه، أو حفر
أكانت الحياةُ
أحب أن تعاش، والصغار آمنين؟
أكانت الحقول تزهر؟
أكانت السماء تمطر؟
أكانت النساء والرجال مؤمنينُ
بأن في السماء قوةً تدبر
تحس، تسمع الشكاة، تبصر
ترق، ترحم الضعاف، تغفر الذنوب؟
أكانت القلوب
أرق، والنفوس بالصفاء تقطر؟
وأقبلت إلهة الحصاد
رفيقة الزهور والمياه والطيب
عشتار ربة الشمال والجنوب
تسير في السهول والوهاد
تسير في الدروب

تلقط منها لحم تموز إذا انتثر
تلمه في سلّة كأنه الثمر
لكن سربروس بابل، الجحيم
يحب في الدروب خلفها ويركض
يمزق النعال في أقدامها، يعضعض
سيقانها اللدان، ينهش اليدين أو يمزق الرداء
يلوث الوشاح بالدم القديم
يمزج الدم الجديد بالعواء
ليعو سربروس في الدروب
لينهش الإلهة الحزينة، الإلهة المرّوعة
فإن من دمائها ستخضب الحبوب
سينبت الإله، فالشرائح الموزعة
تجمعت، تملمت، سيولد الضياء
من رحم ينز بالدماء.

مدينة بلا مطر

مدينتنا تَورق ليلها نارُ بلا لهبٍ
تُحَمُّ دروبها والدُّور، ثم تزول حُمَّاها
ويصبغها الغروب بكل ما حملته من سحب
فتوشك أن تطير شرارةً ويهب موتاها:
«صحا من نومه الطيني تحت عرائش العنب
صحا تموز، عاد لبابل الخضراء يرهاها»
وتوشك أن تدق طبول بابل، ثم يغشاها
صفير الريح في أبراجها وأنين مرضاها
وفي غرفات عشتار
تظل مجامر الفخَّار خاويةً بلا نار
ويرتفع الدعاء، كأن كل حناجر القصب
من المستنقعات تصيح:
«لاهة من التعب
تنوب إلهة الدم، خبز بابل، شمس أذار
ونحن نهيم كالغرباء من دارٍ إلى دار
لنسأل عن هداياها
جياعٌ نحن وا أسفاه! فارغتان كفاها
وقاسيتان عيناها
وباردتان كالذهب
سحائب مرعداتٍ مبرقاتٌ دون إِمطار

قضيّنا العام، بعد العام، بعد العام، نرعاها
وريحٌ تشبه الإعصار، لا مرّت كإعصار
ولا هداًت. ننام ونستفيق ونحن نخشاها
فيا أربابنا المتطلعين بغير ما رحمهُ
عيونكم الحجار نحسها تنداح في العتمهُ
لترجمنا بلا نقمهُ

تدور كأنهن رحي بطيئاتُ تلوك جفوننا
حتى ألفتناها

عيونكم الحجار كأنها لَبِنَاتُ أسوار
بأيدينا، بما لا تفعل الأيدي، بنيناها
عذارانا حزانى زاهلاتٌ حول عشتار
يغيض الماء شيئاً بعد شيء من محيّاها
وغصناً بعد غصنٍ تذبل الكرمهُ

بطيءٌ موتنا المُنسلُ بين النور والظلمهُ
له الويلات من أسدٍ نكابد شدقه الأدرُد!
أنا البرق في عينيه أم من شعله المعبُد؟
أفي عينيه مبخرتان أوجرتا لعشتار؟

أنافذتان من ملكوت ذاك العالم الأسود
هنالك حيث يحمل، كلّ عامٍ، جُرحه الناري
جُرح العالم الدوار، فاديه

ومنقذه الذي في كل عامٍ من هناك يعود بالأزهار
والأمطار، تجرحنا يداه لنستفيق على أياديهِ؟

ولكن مرت الأعوام، كثرًا ما حسبناها
بلا مطرٍ ولو قطره

ولا زهرٍ ولو زهرهُ

بلا ثمرٍ، كأن نخيلنا الجرداء أنصابٌ أقمناها

لنذبل تحتها ونموت

سيدنا جفانا آه يا قبرهُ

أما في قاعك الطيني من جرّة؟
أما فيها بقايا من دماء الرب أو بذره؟
حداثقه الصغيرة أمس جُعنًا فافترسناها
سرقنا من بيوت النمل، من أجرانها، دخناً وشوفاناً
وأوشاباً زرعتها
فوفينا — وما وفّى لنا — نذره!»

* * *

وسار صغار بابل يحملون سلال صبار
وفاكهة من الفخار، قرباناً لعشتار
ويشعل خاطف البرق
بظل من ظلال الماء والخضراء والنار
وجوههم المدوّرة الصغيرة وهي تستسقي
فيوشك أن يفتح — وهي تومض — حقل نوار
ورفّ، كأن ألف فراشةٍ نثرت على الأفق
نشيدهم الصغير:
«قبور إخوتنا تناديننا
وتبحث عنك أيدينا
لأن الخوف ملء قلوبنا، ورياح آزار
تهز مهودنا فنخاف والأصوات تدعونا
جياعٌ نحن مرتجفون في الظلمه
ونبحث عن يدٍ في الليل تطعمنا، تغطينا
نشد عيوننا المتلفتات بزندها العاري
ونبحث عنك في الظلماء، عن ثدين، عن حلمه
فيا من صدرها الأفق الكبير وثديها الغيمه
سمعت نشيجنا ورأيت كيف نموت ... فاسقينا!
نموت، وأنت — وا أسفاه — قاسيةٌ بلا رحمه
فيا آباءنا، من يفئدنا؟ من سيحيينا؟
ومن سيموت يُولمُ لحمه فينا؟»

وأبرقت السماء كأن زنيقة من النار
تفتّح فوق بابل نفسها، وأضاء واديننا
وغلغل في قرارة أرضنا وهجُ فعراًها
بكل بذورها وجذورها وبكل موتها
وسح، وراء ما رفعته بابل حول حُمَّاها
وحول ترايبها الظمآن، من عمَدٍ وأسوار
سحابٍ لولا هذه الأسوار رواها!
وفي أبدٍ من الإصغاء بين الرعد والرعد
سمعنا، لا حفيف النخل تحت العارض السحاح
أو ما وشوشته الريح حيث ابتلت الأدواح
ولكن خفقة الأقدام والأيدي
وكركرةً و«آه» صغيرةٍ قبضت بيمنها
على قمر يرفرف كالفراشة، أو على نجمه
على هبةٍ من الغيمه
على رعشات ماءٍ، قطرةً همست بها نسمة
لنعلم أن بابل سوف تغسل من خطاياها!

بور سعيد

منك الضحايا، وإن كانوا ضحايانا
في ميته، وانتصارٍ جاء خُذلانا!
عجلن بالشمس أن تختار دنيانا
غرس لنا من دم، واخضل موتانا
يُبقي عليها، من الأصنام، لولانا
لأه وعزى، وأعليناه إنسانا
لولا افتداءً لما يغليه، ما هانا
عاد من الوحش يزجيهن قطعانا
نورًا من الله أعماهنا ونيرانا
من أوجه الناس، لولا أنت، عرياننا
فيها وفكًا لموتاهنا وصواننا
باسم لها، فهي قبل اسم إذا كانا
عبء السموات إلا خف إيماننا
دينًا لنا وانتصاراتٍ وعنواننا
من غير زاد، ولا أويت قرصاننا
إلا مُدمى نليل الهام خزيانا
واخترت من بابل واحتزت مروانا
للخصب، في موكب الفادين، قربانا!

يا حاصد النار من أشلاء قتلانا
كم من ردى في حياة، وانخزال ردى
إن العيون التي طفأت أنجمها
وامتد، كالنور، في أعماق تربتنا
فارزلي يا بقايا كاد أولنا
نحن الذين اقتلعنا من أسافلها
حُييت بورت سعيد، من مسيل دم
حُييت من قلعة صماء ناطحها
عاناك في الليل داج من جحافلها
ما عاد ليل قد استخفى بأقنعة
ليل تعيد الكهوف السود أنية
من بعض ما فيه من ظلماء، ما عرفت
حُييت من قلعة ما أد كاهلها
أمسكتها أن يمد الظالمون بها
يا مرفأ النور، ما أرجعت وادعة
ولا تلفظت من مرساك معتديا
جمعت من شط صور لمح أحرفها
والنيل ساق العذارى من عرائسه

فالويل لو كان للعادين ما قدروا!
 فلا ابتنى هرمًا بانٍ، ولا لبست
 ولا تفجر في «ذي قار» فتيتها
 حييت موتى، وأحياء، وأبنيَّة
 والنار والبادرون النار كم زرعوا
 من كل وجهٍ لطفلٍ فيه زنبقةٌ
 الجو مما يلزون الحديد به
 سقاك من كل غيمٍ فيه أحرزه
 كأس الرصاص التي غنى بتوأماها
 لأنهدَّ من حاضرٍ ماضٍ فأخزانا
 تيجانها، في انتظار الرُّوح، موتانا
 ولا تنفست الصحراء قرآنا!
 مستشهداتٍ أو استعصين أركاننا
 من كل ثكلى لعزرائيل بستاننا!
 نَدَمَى، وتلتَمَّ فيه الريح غربانًا
 قاع الجحيم التَّطَى وانصبَّ طوفانا
 جوف الثرى واشتهته النار أزمانا
 «سقراط» وابتل منها جرح وهرانا^١

من أيما رئة؟ من أي قيثار

تنهل أشعاري؟

من غابة النار؟

أم من عويل الصبايا بين أحجار

منها تنز المياه السودُ واللبن المشويُّ كالقار؟

من أي أحداق طفلٍ فيك تُغتصب؟

من أي خبزٍ وماءٍ فيك ما صلبوا؟

من أيما شرفة؟ من أيما دار؟

تنهل أشعاري

كالثار؟

كالنور في رايات ثوَّار؟

من مائك السهران أوتاري؟

أم برجك الهاري

يبكي دمًا من جرح بحار؟

أطفالك الموتى، على المرفأ

يبكون في الريح الشماليه

^١ أجبر الفيلسوف الإغريقي سقراط على تجرع كأس من السم.

والنور من مصباحه المطفأ
قد غار كالمديّة
في صدري العاري
أطفالك الأموات عارُ الحديد
في عرسه الدامي، وذل الرصاص
مالوا بملك شقاء العبيد
واستنزلوا أربابه للقصاص
في ساحة النار
يبكون في الريح الشماليّة
أسرى على السفن الصليبيّة
والريح كالمديّة
تجتثُّ أظفاري
يبكون في داري

* * *

بالقش والطين سدُّوا كوة القمر
والريح في الشجر
قد كمّموا فاهها
كي لا تصيح: «اخْبئُوا عن أعين العجر
أطفالكم، فهي ما ترتد إحداهما
إلا وحال الذي تلقى، إلى حجر»
الريح قيثاري
قد كمّموا فاهها.

ماذل غير الصفا — للنار — والخشب
أسُّ لها في صدور الفتية العرب
من عزيمة، والحديد الصلد من غضب
في عشرة تحسب الأيام بالحقب

هاويك أعلى من الطاغوت فانصبني
حييت من قلعة شق الفضاء بها
الطين فيها دمّ منا، وجندلها
أنت السماوات والأرض، التي خلقت

عقم الجمادات فيه إصبع اللهب
 جبارة تصفع العادين كالشعب
 سداً من الثار أعى حيلة النوب
 من فضة الله توهي جحفل الذهب
 حتى جبي قدر ماءٍ من دمٍ سرب!
 خلفٌ لجيشين ذي قربي وذئ آرَب
 غير الحديد الذي وافاك بالعطب
 حتف المغيرين، والميلاد في قُضِب
 عونٌ لأعدائك الجوعى، وفي قِرب!
 من باع مثواه، راءٍ فيك عن كُثِب
 فيك الأناجيل، والموتى بلا صلْب
 عبء الصليبيين من حُمى ومن خشب
 من فتيةٍ لاصطياد العسكر اللّجِب؟
 كل المخاضات والتسهيد والنّصِب
 آجال كل الذراري طيلة الحُقْب
 معروكةٌ في رحي تترى من الرُكْب
 والنار، أعراض كلّ الخردّ العُرب
 في نسبة ربّ قربي دون منتسب
 عَفوا عن الريش والأسمال واللُّعِب!
 بالأمس قد أنزلوها أسفل الرُتِب
 «إنّا إلى الله أدنى منك في نسب!»
 يا غابة النار قد أثمرت بالغلب!

والصخر فيك استمد الروح إذ لمست
 في كل أنقاض دار، من صفاه يدُ
 ما انهدأ إلا وأعلى في ضمائرنا
 والماء، حتى زلال الماء، فيك مدى
 ما بل للجحفل المأجور غُلتَه
 أملى على كل شيء فيك جوهره
 إن الحديد الذي صنت الحياة به
 والخير في بندقياتٍ قذائفها
 لكنه الشر في خبزٍ حقائبه
 ليت المسيح الذي داجى بشرعته
 خرسٌ نواقيسك الثكلى وداميةٌ
 والحابس الماء عن جرحاك حَمَلها
 واستنطق الأم ثكلى أين جيرتها
 فالتّم في مقلتيها، وهي تنظره
 كأنما استودعتها كلّ والدّة
 فاخترت الموت صعلوگًا مرضعها
 تفدي بما يستبيح الجند من دمها
 أبناء «جنكيز» في روح، وإن بعدوا
 شر اللصوص، إذا عَفّ التتار فما
 فلتنفخ الصُور في أفريقيا أممٌ
 ولتسمعن الزوج البيض صيحتها:
 حُييت فالوحش أوهى فيك مخلبه

من أي عبءٍ على رُوحى ومسمار
 من أعين، في صليب تحت أسواري
 تأتيك أشعاري؟
 حمراء خضراء من جُرحٍ ومن غار
 خضراء من راية، حمراء من نار
 خضراء كالماء في فردوسك الجاري؟

يا ليت أوتاري
خضراء حمراء من قلبي ومن ثاري!
يا ليت أبواب قلبي منك تلتهب!
يا ليتها دون قفلٍ، ليتها خشب!
أو خَرَّبَ الجند قلبي، فهي تنتحب
في كل إعصار!
سوّد، كما اسودَّتِ الأموات، أنهارِي
فالطين فيها فَمَّ يمتص أسفاري
والريح في داري
سوداء ما رف منها باللظى عصب
لا تسألني بعدُ عنها إنها عشب
أعواده السود غَدَى عجله الذهب
منها، فخبَّأت في عينيَّ قيثاري!
كوني لأشعاري
وحياً، وشُدِّي ببأسٍ منك أوتاري
يا مرفأ النور، كن مرسَى لأفكاري!
يا مرفأ النار
ألهمت أغواري
بالنار
مزَّقت عنها سودَ أستار
فانهلَّت الشمس على داري

* * *

كم من دفين، كلُّ ماء القتال
في مدّه العاتي وفي جزره
يلقى على صدره
عبئاً من الظلماء، كان القتال
من أجل أن يرتاح في قبره!
ما كان إلا من دموع الرجال

والنسوة الباكين في قعره
هذا الذي بين العُبابين سال!
كالليل هذا الماء فوق القبور
كالنار، كالإعصار، كالداء
تختضُّ في ليل الخليج الصدور
والشمس تحسو كلَّ ماء الصدور
في عالم لم تمش فيه العصور
من ملتقى للماء بالماء!
كالليل هذا الماء، ندُّ الحياة
الموت والميلاد بوابتاه
في قاعة الموتى قد استبدلوا
بالنبض، ما يُرغِي به الرجل
في موقرات، من سفين الغزاه
بالموت مما يصنع المعمل
حتى إذا ما رش عار العتاه
بالدمع من عينيه، والنار
من قلبه المورق بالغار
إنسانك العملاق ظل الإله
ظل الملايين التي مقلتاه
عنها ترى ما في خيال تراه
هذا الذي أعصابها في قواه
أحيا دم الموتى، فخرَّ الطغاه!
فليحرس الأحياء باب الحياة!

فالأرض تدمى بقتلاها وتزدهر
بيضا، كما تهلك الأنعام والشجر
طعم الدم الحي، ما يرقى به البشر

غاص المغيرون عن واديك وانحسروا
وازدارك الموت لا ملسا ملامحه
حاشاك! فالموت توري فيك حدته

في مثلها، فهو حيث اجتازه البصر
أدركت أيّ انتصارٍ ذلك الظفر!
فيك الأقلّ المضحي أنها كثر
كيد المغيرين منه الظن والنظر؟
في جانبٍ منه واستبسالك الثمر؟
يسعى، أهذا صلاح الدين أم عمر؟
في كل دهيا نبلوها ومنتظر
بالخيل والذابلات، الروم والتتر
لا تيا سي إن «سيف الدولة» القدر
فاخضلّ واخضلت الآيات والسور
فيه المصلين، حتى كبر الحجر!
ما بين جنبيه، رام فيه منتصر
فيها، وعين وراء النيل تنحدر
حملاتها، فهي ممّا راء تستعرا!
تنقض في إثر أخرى، فاللظى مطر
نورٌ له اختضت الأبعاد والعُصر
كالراحة الدور، والأكواخ والحفر
في جبهة، واغتذى من مقلّة سهر
تطوى، ومستقبل يُبنى ويُدخّر!
تحياي وقلبا يداوي، منهما أثر!
فيها، وتلظى، ولا تستلم، الحجر
شعري، وأني بما ضحيت أنتصر
حمرأ يخضل فيها من دمي زهر!

أخفاه عنك التزامٌ فيك واشتباك يد
حتى إذا ارتد واستبشعت صورته
أدركت أن الضحايا رد كاثرها
من سدّد النار في أيديك، يوردها
واحتاز في قلبه الأحقاب، يزرعها
واستنفر الشرق حتى كاد ميّته
هذا الذي حدثنا عنه أنفسنا
هذا الذي كلّ، عن سحقٍ لبذرتة
يا أمّة تصنع الأقدار من دمها
أعطى لكل انتصارٍ فيك جدّته
في مسجدٍ أمّ مشاءً بأمتة
واستشرف الساح ناءٍ عنه يحمله
عينٌ لسيناء ترقى كلّ رابية
أو تنفض الأفق، حتى ضاء من لهبٍ
جاءوك! جاء الصليبيون، قاصفة
في كل فانوس موتى من قذائفها
فالشرق عارٍ مدى عينيه، منبسطٌ
يكاد يبصر ما أبقاه مكتدحٌ
إيماضة البرق ألا أنها حقبٌ
المجد لله والإنسان إن يدا
يا قلعة النور تدمي كل نافذة
أحسست بالذل أن يلقاك دون دمي
لكنها باقةٌ أسعى إليك بها

الموسم العمياء

الليل يُطِيقُ مرةً أخرى، فتشربه المدينةُ
والعابرون، إلى القرارة مثل أغنيةٍ حزينةٍ
وتفتحت، كأزهار الدفلى، مصابيح الطريق
كعيون «ميدوزا»،^١ تحجّر كل قلب بالضعيفه
وكأنها نذرٌ تبشر أهل «بابل» بالحريق

* * *

من أي غاب جاء هذا الليل؟ من أي الكهوف
من أي وجر للذئاب؟
من أي عش في المقابر دفّ أسفع كالغراب؟
«قابيل»^٢ أخف دم الجريمة بالأزهار والشفوف
وبما تشاء من العطور أو ابتسامات النساء
ومن المتاجر والمقاهي وهي تنبض بالضياء!
عمياء كالخفاش في وضح النهار، هي المدينةُ
والليل زاد لها عماها
والعابرون
الأضلع المتقوسات على المخاوف والظنون

^١ في الأساطير اليونانية أن عيون ميدوزا تحول كل من تلتقي بهما عيناه إلى حجر.

^٢ في القرآن الكريم أن الغراب هو الذي أرشد قابيل كيف يدفن أخاه بعد أن قتله.

والأعين التعبى تفتش عن خيالٍ في سواها
وتعد أنية تَلَلُ في حوانيت الخمر
موتى تخاف من النشور
قالوا: سnehرب، ثم لاذوا بالقبور من القبور!

* * *

من هؤلاء العابرون؟
أحفاد «أوديبي»^٣ الضرير ووارثوه المبصرون
«جوكست» أرملة كأمس، وباب «طيبة» ما يزال
يلقي «أبو الهول» الرهيب عليه، من رعب ظلال
والموت يلهث في سؤال
باقٍ كما كان السؤال، ومات معناه القديم
من طول ما اهترأ الجواب على الشفاه
وما الجواب؟

«أنا.» قال بعض العابرين
وانسلت الأضواء من باب تناءب كالجحيم
تطفو عليهن البغايا كالفرشات العطاش
يبحثن في النيران عن قطرات ماء عن رشاش
* * *

لا تثقلن خطاك فالمبغى «علائى»^٤ الأديم
أبناؤك الصرعى تراب تحت نعلك مستباح
يتضحكون ويُعولون

^٣ تزوج «أوديبي» أمه «جوكست» وهو لا يدري بأنها أمه، وطيبة هي المدينة التي دخلها بعد أن قتل أباه ملك طيبة، فتزوج أمه، زوجة الملك القتيل. وكان «أبو الهول» يحرس مدخل المدينة ويلقي على كل غريب يدخلها سؤالاً: «ما الكائن الذي يمشي على أربع في الفجر واثننتين في الظهرية وثلاث في المساء؟» وقد حل أوديبي هذا اللغز وكان الجواب: «الإنسان.»

^٤ نسبة إلى أبي العلاء المعري، الأعمى والقائل: «ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد.» و«هذا جناه أبي علي.»

أو يهمسون بما جناه أبُّ يُبرئُه الصباح
مما جناه، ويتبعون صدَى خطاك إلى السكون

* * *

الحارس المكدود يعبر، والبيغايا متعبات
النون في أحداقهن يرفُّ كالطير السجين
وعلى الشفاه أو الجبين
تترنح البسمات والأصباغ تكلى، باكيات
متعثرات بالعيون وبالخطى والقهقهات
وكأن عاريات الصدور
أوصال جندي قتيل كلُّوها بالزهور
وكأنها درج إلى الشهوات، تزحمه الثغور
حتى تَهْدَمَ أو يكاد ... سوى بقايا من صخور

* * *

حَيْفٌ تستر بالطلاء، يكاد ينكر من رآها
أن الطفولة فجَّرَتْها ذات يومٍ بالضياء
كالجدول الثرثار، أو أن الصباح رأى خطاها
في غير هذا الغار تضحك للنسائم والسماء
ويكاد ينكر أن شقًّا لاح من خلل الطلاء
قد كان، حتى قبل أعوام من الدم والخطيئة
ثغراً يكركر، أو يثرثر بالأفاصيص البريئة
لأبٍ يعود بما استطاع من الهدايا في المساء
لأبٍ يقبل وجه طفلته النديِّ أو الجبين
أو ساعدين كفرختين من الحمائم في النقاء
ما كان يعلم أن ألف فم كبرٍ دون ماء
ستمص من ذاك المحيا كل ماء للحياء
حتى يجف على العظام، وأن عارًا كالوباء
يَصْمُ الجباه فليس تُغسل منه إلا بالدماء
سيحل من ذاك الجبين به ويلحق بالبنين

والساعدين الأبيضين، كما تنورُ في السهول
تفاحة عذراء، سوف يطوّقان، مع السنين
كالحيتين، خصور آلاف الرجال المتعبين
الخارجين، خروج آدم، من نعيمٍ في الحقول
تفاحهُ الدّم والرغيف وجرعتان من الكحول
والحياة الرقطاء ظلُّ من سيات الظالمين
يا أنت، يا أحد السكارى
يا من يريد من البغايا ما يريد من العذارى:
«ما ظلّ يحلم، منذ كان، به ويزرع في الصحارى
زبد الشواطئ والمحارا
مترقبًا ميلاد «أفروديت»^٥ ليلاً أو نهاراً»
أتريد من هذا الحطام الآدمي المستباح
دفعاً الربيع وفرحة الحمل الغرير مع الصباح
ودواء ما تلقاه من سأمٍ وذلٍ واكتداح؟
المال، شيطان المدينة
لم يحظّ، من هذا الرهان، بغير أجسادٍ مهينه
«فاوست»^٦ في أعماقهن يعيد أغنيّةً حزينه
المال، شيطان المدينة، ربُّ «فاوست» الجديد
جارت على الأثمان وفرّة ما لديه من العبيد
الخبز والأسمال حظُّ عبيده المتذللين
مما يوزع من عطايا، لا اللالكى والشباب
والمومس العجفاء، لا «هيلين»^٧، والظمأ للعين

^٥ في أساطير الإغريق أن «أفروديت» وُلِدَتْ من زَبَدِ البحر، ونزلت إلى البرِّ محمولةً على صدفةٍ محار.

^٦ تراهن الله والشيطان على فاوست، وزعم الشيطان أنه يستطيع شراءه روحًا وجسدًا، وقبل فاوست بأن يبيع نفسه فوضع الشيطان نفسه في خدمته لقاء ذلك. فرد عليه الشباب ووهبه اللالكى والمال وأراه شبح هيلين الإغريقية.

^٧ وفي النهاية لم يحصل الشيطان إلا على جسد فاوست، بينما صعدت روحه إلى السماء.

لا حكمة الفرخ المجنح والخطيئة والعذاب
الخيال من سأمٍ تحمم وهي تضرب بالحوافر^٨
حجر الطريق
هلمّ فالحوذي يبحث عن مسافر
والريح صرٌّ، والبغي بلا زبائن منذ حين
إن لم تضاجعها وصدّ سواك عنها معرضين
فكيف تحيا؟ وهي، مثلك لا تعيش بلا طعام؟
لا تخشَ منها أن تراع بما تَأْكَلُهُ الجذام
من صدرك النخر العريض، وأنت ويحك يا أخاها
ماذا تريد، وعمّ تبحث في الوجوه؟ ويا أباه
اطعن بخنجرك الهواء فأنتما لن تقتلها
هي لن تموت

سيظل غاصبها يطاردها وتلفظها البيوت
ستظل ما دامت سهام التبر تصفر في الهواء
تعدو، ويتبعها «أبولو»^٩ من جديد كالقضاء
وتظل تهمس، إذ تكاد يداها أن تتلقفاها:
«أبتي أغثني!» بيد أنك لا تصيح إلى النداء
لو كنت من عرق الجبين ترشها ومن الدماء
وتحيلها امرأة بحق، لا متاعاً للشراء
كللت منها، بالفخار وبالبطولات، الجباها!

* * *

^٨ البيت من «فاوست» لغوته، يقوله الشيطان لفاوست حين كان يزور مرغريت «التي غرر بها وقتل أخاها وولدت طفلاً فقتلته» وهي في سجنها.

^٩ كانت «دفتي» ابنة إله صغير إله أحد الأنهار وقد رآها «أبولو» إله الشمس الجبار فأحبها وطاردها محاولاً اغتصابها، وقد استنجدت بأبيها فرشها بحفنة من الماء وأحالها إلى شجرة غار تضفر من أغصانها الأكاليل للأبطال. أما سهام التبر، الذهب، فهي السهام التي كان كيوييد يرشق بها قلب أبولو ليلهب الحب فيه، وقد استعرناها رمزاً لسطوة المال.

وكأن أَلحَاظَ البَغَايَا
إِبْرُ تَسَلُ بِهَا خِيُوطَ مِنْ وَشَائِعٍ فِي الْحَنَايَا
وَتَظَلُّ تَنْسُجُ، بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ حَشْدِ الْعَابِرِينَ
شَيْئًا كَبِيتِ الْعَنْكَبُوتِ يَخْضُهُ الْحَقْدُ الدَّفِينِ
حَقْدٌ سَيَعِصِفُ بِالرِّجَالِ
وَالْأَخْرِيَاتِ النَّائِمَاتِ هُنَاكَ فِي كَنَفِ الرِّجَالِ
وَالسَّاهِرَاتِ عَلَى الْمَهُودِ وَفِي بِيُوتِ الْأَقْرَبِينَ
حَوْلَ الصَّلَاةِ بَلَا أَطْرَاحٍ لِلثِّيَابِ وَلَا اغْتِسَالِ
فِي الزَّمْهِرِيرِ، وَدُونَ عَدُّ اللَّيَالِي وَالسَّنِينِ!

* * *

وَيَمِرُ عَمَلَاقُ يَبِيعُ الطَّيْرَ، مَعْطَفُهُ الطَّوِيلُ
حَيْرَانُ تَصْطَفِقُ الرِّيَاحَ بِجَانِبِيهِ، وَقَبْضَتَاهُ
تَتَرَاوِحَانِ فَلِلرِّدَاءِ يَدٌ وَلِلْعَبِّ الثَّقِيلِ
يَدٌ، وَأَعْنَاقُ الطَّيُورِ مَرْنَحَاتُ مِنْ خَطَاةٍ
تَدْمِي كَأَثْدَاءِ الْعَجَائِزِ يَوْمَ قَطَعَهَا الْغَزَاةُ
خَطَوَاتِهِ الْعَجَلِي، وَصَرَخَتِهِ الطَّوِيلَةَ: «يَا طَيُورِ
هَذَا الطَّيُورِ، فَمَنْ يَقُولُ تَعَالَى...»
أَفْزَعَهَا صَدَاهُ
يَأْتِيهِ مِنْ عَرَفِ الْبَغَايَا كَاللِّهَاتِ مِنَ الصَّدُورِ
وَيَدُّ تَشِيرَ إِلَيْهِ عَنِ كَتَبٍ، وَقَائِلَةٌ: تَعَالَى!
بَيْنَ التَّضَاكِ وَالسَّعَالِ
عَمِيَاءُ تَطْفِي مَقْلَتَاهَا شَهْوَةَ الدَّمِّ فِي الرِّجَالِ
وَتَحْسَسْتَهُ كَأَنَّ بَاصِرَةً تَهْمُ وَلَا تَدُورُ
فِي الرَّاحَتَيْنِ وَفِي الْأَنْمَالِ وَهِيَ تَعْتَرُ بِالطَّيُورِ
وَتَوَسَّلَتْ: «فَدَى لَعِينِكَ، خَلْنِي ... بِيَدِي أَرَاهَا»
وَيَكَادُ يَهْتِكُ مَا يَغْلَفُ نَاطِرِيهَا مِنْ عَمَاهَا
قَلْبٌ تَحَرَّقَ فِي الْمَحَاجِرِ وَاشْرَأَبَّ يَرِيدُ نُورًا!
وَتَمَسُّ أَجْنَحَةَ مَرْقَطَةٍ فَتَنْشُرُهَا يَدَاهَا

وتظل تذكر - وهي تمسحهن - أجنحة سواها
كانت تراها وهي تخفق ملء عينيها تراها
سرباً من البط المهاجر، يستحث إلى الجنوب
أعناقها الجذلى تكاد تزيد من صمت الغروب
صيحاته المتقطعات، وتضمحل على السهوب
بين الضباب، ويهمس البردي بالرجع الكئيب
ويرجُ وشوشة السكون
طلق ... فيصمت كل شيء ... ثم يلغط في جنون
هي بطة فلم انتفضت؟ وما عساها أن تكون؟
ولعل صائدها أبوك، فإن يكن فستشبعون
وتخف راكضةً حيال النهر كي تلقى أباه
هو خلف ذاك التل يحصد سوف يغضب إن رآها
مرَّ النهار ولم تُعنه وليس من عون سواها
وتظل ترقى التل وهي تكاد تكفر من أساها

* * *

يا ذكريات علام جئت على العمى وعلى السهاد؟
لا تمهليها، فالعذاب بأن تمرِّي في أتئاد
قُصِّي عليها كيف مات وقد تضرج بالدماء
هو والسنابل والمساء

وعيون فلاحين ترتجف المذلة في كواها
والغمغمات: «رأه يسرق ...» واختلاجات الشفاه
يخزين ميئتها، فتصرخ: «يا إلهي، يا إلهي»
لو أن غير «الشيخ»! وانكفأت تشد على القتل
شفتين تنتقمان منه أسى وحباً والتياعا
وكأن وسوسة السنابل والجداول والنخيل
أصداء موتى يهمسون: «رأه يسرق.» في الحقول
حيث البيادر تفصد الموتى فتزداد اتساعا!

* * *

وتحس بالدم وهو ينزف من مكانٍ في عماها
كالماء من خشب السفينة، والصيد من القبور
وبأدمعٍ من مقلتيها كالنمال على الصخور
أو مثل حبات الرمال مبعثرات في عماها
يهوين منه إلى قرارة قلبها آها فأها
ومن الموم وتلك أقدارٌ كُتِبْنَ على الجبين؟
حتّمٌ عليها أن تعيش بعرضها، وعلى سواها
من هؤلاء البائسات وشاء رب العالمين
ألا يكون سوى أبيها — بين آلافٍ — أبأها
وقضى عليه بأن يجوع
والقمح ينضج في الحقول من الصباح إلى المساء
وبأن يلص فيقتلوه «وتشرئب إلى السماء
كالمستغيثة وهي تبكي في الظلام بلا دموع»
والله — عز الله — شاء
أن تقذف المدن البعيدة والبحار إلى العراق
آلاف آلاف الجنود ليستبيحوا، في زقاق
دون الأزقة أجمعين
ودون آلاف الصبايا، بنت بائعة الرقاق
تلك الشقية، ياسمين
«ذاك اسم جارثها الجديد، فليتها كانت تراها
هل تستحق اسمًا كهذا: ياسمين وياسمين؟»
ومن الذي جعل النساء
دون الرجال، فلا سبيل إلى الرغيف سوى البغاء؟
الله — عز وجل — شاء
ألا يَكُنَّ سوى بغايا أو حواضن أو إماء
أو خادمتٍ يستبيح عفافهن المترفون
أو سائلاتٌ يشتهيهن الرجال المحسنون!
لو لم تكن أنثى! وتسمع قهقهاتٍ من بعيد

«عباس» عاد من التردُّد بالرجال على الوصيد
ولسوف تنزح راحتاه غُسالَةَ الضيف الجديد
لو لم تكن أنثى، وتسمع قهقهاتٍ من بعيد
يا ليت حملاً تزوجها يعود مع المساء
بالخبز في يده اليسار وبالمحبة في اليمين
لكن بأئسة سواها حدثتها منذ حين
عن بيتها وعن ابنتيها، وهي تشهق بالبكاء
عن زوجها الشرطي يحمله الغروب إلى البغايا
كالغيمة السوداء تُنذر بالمجاعة والرزايا
أزراره المتألقات على مغالق كل باب
مُقلُّ الذئب الجائعات ترود غاباً بعد غاب
وخطاه مطرقة تُسَمِّرُ، في الظلام، على البغايا
أبوابهن، إلى الصباح، فلا اتَّجَّارُ بالخطايا
إلا لعاهرة تُجَارُ بأن تكون من البغايا
ويظل يخفرهن من شبع، وينثر في الرياح
أغنيَّةً تصف السنابل والأزاهر والصبايا
وتظل تنتظر الصباح وساعديه مع الصباح
تصغي — وتحترض ابنتيها في الظلام — إلى النباح
وإلى الرياح تئن كالموتى وتعول كالسبايا
وتُجمع الأشباح من حفر الخرائب والكهوف
ومن المقابر والصحاري بالمئات وبالألوف
فتقفُّ من فزعٍ وتحجب مقلتيها بالغطاء
ويعود والغبش الحزين يرشُّ بالطل المضاء
سعفَ النخيل يعود من سهرٍ يئن ومن عياء
كالغيمة اعتصرت قواها في القفار، وترتجيبها
عبر التلال قوَى تجوع؛ لكي ينام إلى المساء
عيشُ أشق من المنية، وانتظار كالفناء
وطوى يعبُّ من الدماء وسم أفعى في الدماء

وعيون زان يشتهيها، كالجحيم يشعُّ فيها
سخرٌ وشوق واحتقار، لاحقتها كالوباء
والمال يهمس أشترك وأشترك فيشترتها

* * *

يا ليتها، إذن، انتهى أجلُّ بها فطوى أساها!
«لو أستطيع قتلت نفسي...» همسةٌ خنقت صداها
أخرى توسوس: «والجحيم؟ أتصبرين على لظاها؟
وإذا اكفهر وضاق لحدك، ثم ضاق، إلى القرار
حتى تفجّر من أصابعك الحليب رشاش نار
وتساءل الملكان فيم قتلت نفسك يا أئيمه؟
وتخطفك إلى السعير تكفّرين عن الجريمة
أفتصرخين: أبي! فينفض راحتيه من الغبار
ويخف نحوك وهو يهتف: قد أتيتك يا سليمة؟»
حتى اسمها فقدته واستترت بأخر مستعار
هي — منذ أن عميت — «صباح»
فأي سخريةٍ مريره!

أين الصباح من الظلام تعيش فيه بلا نهار
وبلا كواكب أو شموع أو كوى وبدون نار؟
أوبعد ذلك ترهين لقاء ربك أو سعيره؟
القبر أهون من دجك دجى وأرفق، يا ضريره
يا مستباحة كالفريسة في عراء، يا أسيره
تتلفتين إلى الدروب ولا سبيل إلى الفرار؟

* * *

وتحس بالأسف الكظيم لنفسها: لم تستباح؟
الهز نام على الأريكة قربها لم تستباح؟
شبعان أغفى، وهي جائعة تلم من الرياح
أصداء قهقهة السكارى في الأرقّة، والنباح
وتعد وقع خطى هنا وهناك ها هو ذا زبون

هو ذا يجيء، وتشرئب، وكاد يلمس ... ثم راح
وتدق في أحد المنازل ساعة لِمَ تستباح؟
الوقت أذن بانتهاء الزبائن يرحلون
لِمَ تستباح وتستباح على الطوى؟ لِمَ تستباح؟
كالدرب تذرعه القوافل والكلاب إلى الصباح؟
الجوع ينخر في حشاها، والسكرارى يرحلون
مرُّوا عليها في المساء وفي العشية ينسجون
حلماً لها هي والمنون
عصابات مهجتها سداه وكل عوق في العيون
والآن عادوا ينقضون
خيطةً فخيطةً من قرارة قلبها ومن الجراح
ما ليس بالحلم الذي نسجوه، ما لا يدركون
شيئاً هو الحلم الذي نسجوا وما لا يعرفون
هو منه أكثر كالحفيف من الخمائل والرياح
والشعر من وزنٍ وقافية ومعنى، والصباح
من شمسهِ الوضاء ... وانصرفوا سكارى يضحكون!
فليرحلوا. ستعيش، فهي من السعال ومن عماها
أقوى، ومن صخب السكرارى
فامض عنها يا أساها!
ستجوع عاماً أو يزيد، ولا تموت، ففي حشاها
حقْدٌ يؤرِّث من قواها
ستعيش للثأر الرهيب
والداء في دِمِّها وفي فمها ستنتفث من رداها
في كل عرق من عروق رجالها شبكاً من الدَّم واللّهيب
شبكةً تخطَّف مقلتيها أمس، من رجلٍ أتاها
سترده هي للرجال، بأنهم قتلوا أباهما
وتلقَّفوها يعبثون بها وما رحموا صباها
لم يبتغوها للزواج لأنها امرأة فقيرة

واستدرجوها بالوعود لأنها كانت غريرة
وتهامس المتقولون فثار أبناء العشيرة
متعطشين — على المفارق والدروب — إلى دماها
وكأن موجة حقدتها وأسأها
كانت تقرب من بصيرة قلبها صوراً علاها
صدأ المدينة وهي ترقد في القرارة من عماها
كل الرجال؟ وأهل قريتها؟ أليسوا طبيين؟
كانوا جياً — مثلها هي أو أبيها — بأئسين
هم مثلها — وهم الرجال — ومثل آلاف البغايا
بالخبز والأطمار يؤتجرون، والجسد المهين
هو كل ما يتملكون، هم الخطاة بلا خطايا
وهم السكارى بالشورور كهؤلاء العابرين
من السكارى بالخمور ... كهؤلاء الفاجرين بلا فجور
الشاربين — كمن تضاجع نفسها — ثمن العشاء
الدافين خروق بالية الجوارب في الحذاء
يتساومون مع البغايا في العشي على الأجور
ليوفروا ثمن الفطور!
ليس الذين تغصّبوا من سلالة هؤلاء
كانوا كآلهة مقطبة الجباه من الصخور
تمتص من فزع الضحايا زهوها ومن الدماء
متطلعين إلى البرايا كالصواعق من علاء!
وتحس، في دماها، كآبة كل أمطار الشتاء
من خفق أقدام السكارى، كالأسير وراء سور
يصغي إلى قرع الطبول يموت في الشفق المضاء
هي والبغايا خلف سور، والسكارى خلف سور
يبحثن هنّ عن الرجال، ويبحثون عن النساء
دميت أصابعهن تحفر والحجارة لا تلين
والسور يعضغن ثم يقيئنهن ركام طين

نصبًا يخلدُ عار آدمٍ واندحار الأنبياء
وظلول مقبرةٍ تضم رُفَات «هابيل» الجنين!
سور كهذا، حدّثوها عنه في قصص الطفولة
«أجوج»^{١٠} يغرز فيه — من حنقٍ — أظافره الطويلة
ويعض جندله الأصم، وكف «مأجوج» الثقيله
تهوي، كأعنف ما تكون على جلامده الضخام
والسور باقٍ لا يُثَلُّ وسوف يبقي ألف عام
لكن «إن شاء الإله»
طفلاً كذلك سمياه
سيهب ذات ضُحَى ويقلع ذلك السور الكبير
الطفل شاب وسورها هي ما يزال كما رآه
من قبل يأجوج البرايا توأمٌ هو للسعير!
لص الحجارة من منازل في السهول وفي الجبال
يتواثب الأطفال في غرفاتها ويكركرون
والأمهات يلدن والآباء للغد يسمون
لم يُثَقِّ من حجر عليها، فهي ريح أو خيال
وأدار من خطم البلاد رَحَى، وساط من البطون
ما ترتعیه رحاه من لحم الأجنّة والعظام
وكشاطئين من النجوم على خليج من ظلام
يتحرّقان ولا لقاء ويخمدان سوى ركام
شق الرجال عن النساء سلالتين من الأنام
تتلاقيان مع الظلام وتفصلان مع الشروق
زانٍ وزانية، وبائعة وشارٍ، والطعام

^{١٠} قصة يأجوج ومأجوج يعرفها كل من قرأ القرآن الكريم، ولكن الأساطير الشعبية تضيف إليها أنهما يلحسان السور بلسانيهما كل يوم حتى يصبح في رقة قشرة البصل، ويدركهما التعب فيقولان: «غداً سنتم العمل.» وفي الغد يجدان السور على عهده من القوة والمتانة؛ وهكذا. حتى يُولد لهما طفل يسميانه «إن شاء الله» فيحطم السور.

لا الحب والأحقاد لا الأشواق، تنبض في العروق!
زانٍ وزانية! أيمكن ذاك وهي بلا عشاء؟
لم يعرض الزانون عنها وحدها؟ لِمَ يعرضون
وهي الفقيرة فقر شحاذ؟ أما هي كالنساء؟
أومًا لها جسد كناضجة الثمار؟ أيعثرون
لو يقطعون الليل بحثًا والنهار، على سواها
في حسننها هي؟ في غضارة ناهديها أو صباها
وبسعرها هي؟ أي شيء غير هذا يبتغون؟
أ«زهور» أجمل أو «سعاد»؟ بأي شيء جارتها
تتفوقان؟

وعضت اليد وهي تهمس «بالعيون»!
عمياء أنت وحظك المنكود أعمى يا سليمة
وتلوب أغنية قديمه
في نفسها، وصدى يوشوش: «يا سليمة، سليمة»^{١١}
نامت عيون الناس آه فمن لقلبي كي يُنيمه؟
ويل الرجال الأغبياء، وويلها هي، من عماها!
لِمَ أصبحوا يتجنبون لقاءها؟ أيضا جعون
عيونها، فيخلفوها وحدها إذ يعلمون
بأنها عمياء؟ فيم يكابرون ومقلتاها
ما كانتا فخذين أو ردفين؟

وهي بهؤلاء
أدرى وتعرف أي شيء في البغايا يشتهون
بالأمس، إذ كانت بصيره
كان الزبائن بالمئات ولم يكونوا يقنعون
بنظرة قمرء تغصبها من الروح الكسيرة
لترش أفئدة الرجال بها، وكانوا يلهثون

^{١١} أغنية شعبية «سليمة يا سليمة نامت عيون الناس كلبى (قلبي) ش يُنيمه؟»

في وجهها المأجور، أبخرةَ الخمر، ويصرخون
كالرعد في ليل الشتاء
عبر ابتسامتها أو الفخذ التي زلق الرداء
عنها، أو النهدين نمَّ عليهما قلق الضياء:
«إن كنت لا تتجردين كما أتيت إلى الوجود
إن كنت لا تتجردين فلا نقود!»
ولعل غَيْرَةَ «ياسمين» وحقدتها سبب البلاء
فهي التي تضع الطلاء لها وتمسح بالذرور
وجهاً تطفأت النواظر فيه:
«كيف هو الطلاء؟
وكيف أبدو؟»
«وردةٌ قمر ضياء!»
زور وكل الخلق زور
والكون مَبْنُ وافتراء
لو تبصر المرأة — لمحة مقلتيها — لو تراها
لمح النيازك، ثم تغرق من جديد في عماها!
برق ويطفأ ثم تُحکم فرقتها بيد، وفاها
بيد، وترسم بالطلاء على الشفاه لها شفاها
شفتاك عارية وخدك ليس خدك يا سليمة
ماذا تخلف منك فيك سوى الجراحات القديمة؟
وتضم زهرة قلبها العطشى على ذكرى أليمة
تلك المعابثة اللعوب كأنها امرأة سواها!
كالجدولين تخوض ماءهما الكواكب، مقلتها
والشعر يلهث بالرغائب والطراوة والعبير
ويمثل أضواء الطريق نعسن في ليل مطير
والثغر بين الجُنَّارِ وزهرة النهدي الصغير
كانت إذا جلست إلى المرأة يفتنها صباها
فتظل تعصر نهدها بيد، وتحملها رؤاها

من مخدع الآثام في المنفى، إلى قصر الأمير
تقتات بالعسل النقي، وترتدي كسل الحرير
ليت النجوم تخر كالفحم المطفأ، والسما
ركام قار أو رماد، والعواصف والسيول
تدك راسية الجبال ولا تخلف في المدينة من بناء!
أن يعجز الإنسان عن أن يستجير من الشقاء
حتى بوهم أو برؤيا، أن عيش بلا رجاء
أوليس ذاك هو الجحيم؟ أليس عدلاً أن يزول؟
شبع الذباب من القمامة في المدينة، والخيول
سرّحن من عرباتهن إلى الحظائر والحقول
والناس ناموا، وهي ترتقب الزناة بلا عشا
هذا الذي عرضته كالسلع القديمة كالحذاء
أو كالجرار الباليات، كأسطوانات الغناء
هذا الذي يأبى عليها مشتر أن يشتريه
قد كان عرّضاً — يوم كان — ككل أعراض النساء!
كان الفضاء يضيق عن سعة، وترتخص الدماء
إن رنق النظر الأثيم عليه كان هو الإباء
والعزة القعساء والشرف الرفيع فشاهديه
يا أعين الظلماء، وامتلئي بغيبك وارجميه
بشواظ عارك واحتقارك يا عيون الأغبياء!
«لا تتركوني يا سكارى
للموت جوعاً، بعد موتي — ميتة الأحياء — عازاً
لا تقلقوا فعماي ليس مهابة لي أو وقاراً
ما زلت أعرف كيف أعرش ضحكتي خلل الرداء
إبان خلعي للرداء، وكيف أرقص في ارتخاء
وأمس أغطية السرير وأشرئب إلى الوراء
ما زلت أعرف كل ذلك، فجزّبوني يا سكارى!
من ضاجع العربية السمراء لا يلقي خساراً

كالقمح لونك يا ابنة العرب،^{١٢}
كالفجر بين عرائش العنب
أو كالفرات، على ملامحه
دعة الثرى وضراوة الذهب
لا تتركوني فالضحى نسبي
من فاتح، ومجاهد، ونبي!
عربية أنا أمتي دمها
خير الدماء كما يقول أبي
في موضع الأرجاس من جسدي، وفي الثدي المذال
تجري دماء الفاتحين فلوثوها، يا رجال
من جنس للرجال فأمس عاث بها الجنود
الزاحفون من البحار كما يفور قطع دود
يا ليت للموتى عيوناً من هباء في الهواء
ترى شقائي
فيرى أبي دمه الصريح يعبُّ أوْشالَ الدماء
كالوحد في المستنقعات فلا يردُّ الخاطبين
أبٌ سواه لأن جده أم ذاك من الإمام
ولأن زوجة خال ذلك بنت خالة هؤلاء!
أنا يا سكارى لا أرد من الزبائن أجمعين
إلا العفاة المفلسين
أنا زهرة المستنقعات، أعبُّ من وحل وطين
وأشع لون ضحى»
وذكَّرها بجعجة السنين
سُعالتها ذهب الشباب!

^{١٢} ضاع مفهوم القومية عندنا بين الشعبين والشوفينيين يجب أن تكون القومية شعبية والشعبية قومية. يجب جعل أحفاد محمد وعمر وعلي وأبي ذر والخوارج والشيعة الأوائل والمعتزلة يعيشون عيشة تليق بهم كبشر وكورثة لأجداد الأمة العربية.

ذهب الشباب! فشيعة مع السنين الأربعين
ومع الرجال العابرين حيال بابك هازئين
وأتي المشيب يلف رُوحك بالكآبة والضباب
فاستقبله على الرصيف بلا طعام أو ثياب
يا ليتك المصباح يخفق ضوءه القلق الحزين
في ليل مخدعك الطويل، وليت أنك تحرقين
دَمًا يجف فتشتيرين

سواه، كالمصباح والزيت الذي تستأجرين^{١٣}
عشرون عامًا قد مضين، وشببت أنت، وما يزال
يذرذر الأضواء في مُقل الرجال
لو كنت تدخرين أجر سناه ذاك على السنين
أثريث

ها هو ذا يضيء فأبي شيء تملكين؟
ويح العراق! أكان عدلاً فيه أنك تدفعين
سهاد مقلتك الضريرة
ثمناً لملء يديك زيتاً من منابعه الغزيرة؟
كي يثمر المصباح بالنور الذي لا تبصرين؟
عشرون عامًا قد مضين، وأنت غرثى تأكلين
بنيك من سغب، وظمأى تشريين
حليب ثديك وهو ينزف من خياشيم الجنين!
وكزارع لهم البذور
وراح يقتلع الجذور
من جوعه، وأتى الربيع فما تفتحت الزهور
ولا تنفست السنابل فيه
ليس سوى الصخور
سوى الرمال، سوى الفلاة

^{١٣} تدفع البغايا للسمسارات أجرًا ليلياً عن المصابيح في غرفاتهم قدره ربع دينار لكل مصباح!

خُنت الحياة بغير علمك، في اكتداحك للحياة!
كم ردَّ موْتُك عنك موت بنيك إنك تقطعين
حبل الحياة لتنقضيه وتضفري حبلاً سواه
حبلاً به تتعلقين على الحياة تضاجعين
ولا ثمار سوى الدموع، وتأكلين
وتسهرين ولا عيون، وتصرخين ولا شفاةً
وغداً بحبك تُشنقين
وغداً ... وأمس ... وألف أمس، كأنما مسح الزمان
حدود ما لك فيه من ماضٍ وآت
ثم دار، فلا حدود
ما بين ليك والنهار، وليس — ثمَّ — سوى الوجود
سوى الظلام، ووطء أجساد الزبائن، والنقود
ولا زمان، سوى الأريكة والسريـر، ولا مكان!
لِمَ تحسبين ليالي السأم المسهدة الرتيبة؟
ما العمر؟ ما الأيام؟ عندك، ما الشهور؟ وما السنين؟
ماتت «رجاء» فلا رجاء تكلت زهرتك الحبيبة!
بالأمس كنت إذا حسبت فعمرها هي تحسبين
ما زال من فمها الصغير
طراوة في حلمتك، وكركات في السريـر
كانت عزاءك في المصيبة
وربيع قفرتك الجديبه
كانت نقاءك في الفجور، ونسمةً لك في الهجير
وخلصك الموعود، والغيش الإلهي الكبير!
ما كان حكمة أن تجيء إلى الوجود وأن تموت؟
ألتشرب اللبن المرنق بالخطيئة واللعب
أوشالَ ما تركته في ثديك أشداق الذئاب؟
كان الزناة يضاجعونك وهي تصرخ دون قوت
فكأنها، وهي البريئة

كانت تشاركك العذاب لكي تكفّر عن خطيئته!

أفترضين لها مصيرك؟

فاتركيها للتراب

في ظلمة اللحد الصغير تنام فيه بلا مأب

فالنور والأطفال والبسمات حظ المترفين

والجوع والأدواء والتشريد حظ الكادحين

وأنت بنت الكادحين

* * *

مات الضجيج وأنت، بعدُ، على انتظارك للزناه

تتنصّتين، فتسمعين

رنين أقفال الحديد يموت، في سأم، صداه

الباب أوصد

ذاك ليل مرّ

فانتظري سواه.

حفار القبور

١

ضوء الأصيل يغيم، كالحلم الكئيب، على القبور
واه، كما ابتسم اليتامى، أو كما بهتت شموع
في غيبه الذكرى يهوم ظلُّهنَّ على دموع
والمدرج النائى تهب عليه أسراب الطيور
كالعاصفات السُّود، كالأشباح في بيتٍ قديم
برزت لترعب ساكنيه
من غرفةٍ ظلماء فيه
وتتأب الطلُّ البعيد، يُحدِّق الليل البهيم
من بابه الأعمى ومن شُباكه الخرب البليد
والجو يملؤه النعيبُ
فتردد الصحراء، في يأسٍ وإعوال رتيب
أصداءه المتلاشيات
والرياح تذروهن، في سأم، على التل البعيد!
وكأن بعض الساحرات
مدت أصابعها العجاف الشاحنات إلى السماء
تومي إلى سربٍ من الغربان تلويه الرياح
في آخر الأفق المضاء
حتى تعالى ثم فاض على مراقيه الفساح

فكأن ديدانَ القبور
فارت لتلتهم الفضاء وتشرب الضوء الغريقُ
وكأنما أزف النشور
فاستيقظ الموتى عطاشى يلهثون على الطريق!
وتدفع السرب الثقيل
يطفو ويرسب في الأصيل
لَجِبًا يرنق بالظلام على القبور الباليات
وظلاله السوداء تزحف، كالليالي الموحشات
بين الجنادل والصخور
وعلى القبور!
وتنفس الضوء الضئيلُ
بعد اختناقٍ بالطيوف الراعبات وبالجتامُ
ثم ارتخت تلك الظلال السود وانجابَ الظلام
فانجاب عن ظلٍ طويلُ
يلقيه حفار القبورُ
كفآن جامدتان، أبرد من جباه الخاملين
وكأن حولهما هواءٌ كان في بعض اللحد
في مقلة جوفاء خاوية يهُومُ في ركود
كفآن قاسيتان جائعتان كالذئب السجينُ
وفمُ كَشِقٍ في جدار
مستوحِدٍ بين الصخور الصُّمِّ من أنقاض دار
عند المساء ومقلتان تحدِّقان، بلا بريقُ
وبلا دموعٍ، في الفضاء:
«هو ذا المساء
يدنو، وأشباح النجوم تكاد تبدو، والطريق
خالٍ؛ فلا نعش يلوح على مداه ... ولا عويلُ
إلا النعيب
وتنهذ الريح الطويل!

وعلام تنعب هذه الغربان، والكون الرحيب
باق يدور يعج بالأحياء مرضى، جائعين
بيضُ الشعور كأعظم الأموات، لكن خالدين
لا يهلكون؟ علام تنعب؟ إن عزرائيل مات!
وغدًا أموت، غدًا أموت!»

وهز حفار القبور
يُمناه في وجه السماء، وصاح «رب! أما تثور
فتبيد نسل العار ... تحرق، بالرجوم المهلكات
أحفاد عادٍ، باعةَ الدّمِ والخطايا والدموع؟
يا رَبِّ ما دام الفناء
هو غاية الأحياء، فأمرُ يهلكوا هذا المساء!
سأموت من ظمًا وجوع
إن لم يَمُتْ — هذا المساء إلى غدٍ — بعض الأنام
فابعث به قبل الظلام!

يا رب أسبوعٌ طويلٌ مرَّ كالعام الطويل
والقبر خاوٍ، يفغر الفم في انتظارٍ ... في انتظار
ما زلت أحفره ويطمره الغبارُ
تتئاب الظلماء فيه ويرشح القاع البليلُ
مما تعصّر أعين الموتى وتنضحه الجلود
تلك الجلود الشاحبات وذلك اللحم النثير!
حتى الشفاه يمضُّ من دمها الثرى، حتى النهود
تذوي ويقطر، في ارتخاءٍ من مرضعها، المغير!^١
وأها لهاتيك النواهد، والمآقي، والشفاه!
وأها لأجساد الحسان! أياكل الليل الرهيبُ
والدود منها ما تمناه الهوى؟ وا خيبتاه!

^١ اللبن الممزوج دماً.

كم جثة بيضاء لم تفضها شفتا حبيب
أمسى يضاجعها الرغام؟
هل كان عدلاً أن أحن إلى السراب، ولا أنالُ
إلا الحنين، وألف أنثى تحت أقدامي تنام؟
أفكلما اتقدت رغاباً في الجوانح شحّ مال؟
ما زلت أسمع بالحروب، فأين أين هي الحروب؟
أين السناكب والقذائف والضحايا في الدروب
لأظلل أذنها فلا تسع الصحارى
فأدس في قمم التلال عظامهنّ وفي الكهوف؟
فكأن قعقة المنازل في اللظى نقرَ الدفوف
أو وقع أقدام العذارى
يرقصن حولي لاعباتٍ بالصنوج وبالسيوف!
نُبئتُ عن حربٍ تدور، لعل عزرائيل فيها ...
في الليل يكدح والنهار، فلن يمر على قرانا
أو بالمدينة وهي توشك أن تضيق بساكنيها!
نُبئتُ أن القاصفات هناك ما تركت مكاناً
إلا وحلّ به الدمار فأبي سوقٍ للقبور!
حتى كأن الأرض من ذهب يضاحك حافريها
حتى كأن معاصرَ الدّم دافقاتٌ بالخمور!
أواه لو أني هناك أسد، باللحم النثير
جوع القبور وجوع نفسي ... في بلادٍ ليس فيها
إلا أرامل ... أو عذارى غاب عنهن الرجال
وافترضهنّ الفاتحون إلى الذماء، كما يقال!
ما زلت أسمع بالحروب فما لأعين موقديها
لا تستقرّ على قرانا؟ ليت عيني تلتقيها
وتخضهن إلى القرار، وكالنيازك والرعود
تهوي بهن على النخيل، على الرجال، على اليهود!
حتى تحرق أعين الموتى، كآلاف اللائي

من كل شبرٍ في المدينة ثم تنظم كالعقود
في هذه الأرض الخراب، فيا لأعينها ويا لي!
رباه إني أقشعرُّ أكاد أسمع في الخيال
أغنيَّة تصف العيون
تنثال من مقهى، فأنصت في الزحام، وينصتون!
وكأن ما بيني وبين الآخرين من الهواء
تُدِّي سخيُّ بالحليب وبالمحبة والإخاء
يا رب أسبوع يمر ولست أسمع من غناء
إلا النعيبُ
وتنهَّد الريح الرتيب!
وا خيبته! ألن أعيش بغير موت الآخرين؟
والطيبات من الرغيف، إلى النساء، إلى البنين
هي منة الموتى عليّ فكيف أشفق بالأنام؟
فلتمطرنَّهم القذائف بالحديد وبالضرام
وبما تشاء من انتقام
من حُمَيَّاتٍ أو جذام!
نذرٌ عليّ لئن تشبَّ لأزرعنَّ من الورود
ألفاً تُروى بالدماء وسوف أرصف بالنقود
هذا المزار ... وسوف أركض في الهجير بلا حذاء
وأعدُّ أحدىة الجنود
وأخطُّ، في وحل الرصيف وقد تلتخ وقد تلتخ بالدماء
أعدادهنَّ لأستبيح عدادهنَّ من النهود!
وسأدفن الطفل الرَّمِيَّ وأطرح الأُمَّ الحزينه
بين الصخور على ثراه
ولسوف أعرز بين ثدييها أصابعي اللعينة
ويكاد يحنقها لهاثي وهي تسمع، في لظاه
قلبي ووسوسة النقود نقودها! وا خجلتاه!
أنا لست أحقر من سواي وإن قسوت فلي شفيع

أني كوحشٍ في الفلاء
لم أقرأ الكتب الضخام، وشافعي ظمأً وجوع
أوما ترى المتحضرين
المزدهين من الحديد بما يطير وما يذيع؟
مهما الدنأت فلن أسفَّ كما أسفُّوا. لي شفيح
أني نويت ويفعلون، وإنَّ من يئد البنين
والأمهات ويستحل دم الشيوخ العاجزين
لأحط من زان انتهك الغزاة وما استباحوا!
والقاتلون هم الجناة وليس حفار القبور
وهم الذين يلونون لي البغايا بالخمور
وهم المجاعة، والحرائق، والمذابح، والنواح
وهم الذين سياتركون أبي وعمته الضريرة
بين الخرائب ينبشان ركاهن عن العظام
أو يفحصان عن الجذور، ويلهثان من الأورام
والصخر كالمقل الضريرة
وسيوثقون بشعر أختي قبضتي وكالظلام
وكخضة الحمى، تسمرها على دمها صدور
تعلو وتهبط باللهات، كأنهن رَحَى تدور
يا مجرمون، إلى الوراء! فسوف تنتفض القبور
وتقيء موتاها ويا موتي، على اسم الله ثوروا!
رباه، عفوك إن «قابيل» المكبل بالحديد
في نفسي الظلماء هَبَّ وَقَرَّ يعصره الملل!
فالليل جاء، وما أزال
مستوحداً أرعى القبور وأنفضُ الدرب البعيد
وكأنَّ ... يا بشرى! كأن هناك في أقصى الجنوب
خطاً كأذيال الظلام ولمعة كدم الغروب!
لأنه ضيفٌ جديد!
وبدا الجناز، وراح يشهق وهو يدنو في ارتخاء

الأوجه المتحجّرات يضيئها الشفق الكئيب
والغمغات الخافتات من انفعالٍ أو رياءٍ
والنعش يحجبه غطاءً
ألوانه المترنحات كأنما اعتصر المغيب
فيها قواه، وذاب فيها كوكب واهي الضياء
حتى إذا انهال التراب وصُفِّحَ القبر الجديد
وتراعى الألق الضئيل، على الظهور المتعبات
حتى اضمحل، وغيبَّتْها ظلمة الأفق البعيد
كانت مصابيح السماء تذر ضوءاً كالضباب
بين القبور الموحشات
وعلى الخرائب والرمال وكان حفار القبور
متعثر الخطوات يأخذ دربه تحت الظلام
يرعى مصابيح المدينة وهي تخفق في اكتئاب
ويظل يحلم بالنساء العاريات وبالخمور
وتحسست يده النقود وهياً الفم لابتسام
حتى تلاشى في الظلام!

٢

النور ينضح من نوافذ حانةٍ عبر الطريق
وتكاد رائحة الخمر
تلقي، على الضوء المشبع بالدخان وبالفتور
ظلاً كألوانٍ حيارى واهياتٍ من حريق
ناءً ... تهوم، في الدجى الضافي، على وجهٍ حزين
وتلوح أشباحٌ عجاف
خلف الزجاج تهيم في الضوء السَّرابيِّ الغريق
ويشد حفار القبور على الزجاجاة باليمين
وكمن يحاذر أو يخافُ

يرنو إلى الدرب المنقط بالمصابيح الضئال
وتحركت شفتاه في بطءٍ وغمغم في انخزال:
«أظننت أنك سوف تقتحم المدينه كالغزاهُ
كالفاتحين وتشتريها بالذي ملكت يداك
بأقل من ثمن الطلاء القرمزي على شفاهُ
أو في أظافرٍ لاحقتها، ذات يومٍ، مقلتاك؟
سأعود، لا نهْدُ تعصُّره يدي حتى الذهولُ
حتى التأوُّه، والأنين، وصرخة الدم في العروق
والسكرة العمياء ... والخدر المضعضع ... والأفول!
والأذرع المنفتِّرات يلوُّن الضوء الخفوق
هزاتها المستسلمات، وينفح الدم والعبيرُ
ظلُّ لهن على السرير
الأذرع المتفتِّرات، وزهرتان على الوسادُ
نسجتها كفُ مخضبة الأظافر، زهرتان
تتفتحان على الوسادة كالشفاهِ، وتهمسان
نغمًا يذوب إلى رقادُ
ونعومة الكتفين، والشعر المعطر، والشحوب
وتألق الجيد الشهي، ولفحة النَّفس البهير
والنور منفلتًا من الأهداب تثقله الطيوب
قلقًا كمصباح السفينة راوحته صَبًّا لعبوب
وتخافق الأظلال في دعةٍ، ووسوسة الحرير
والحلمتان أشد فوقهما بصدري في اشتهاؤُ
حتى أحسهما بأضلعي، وأعتصر الدماء
باللحم والدِّم والحنايا، منهما، لا باليدين
حتى تغيبا فيه، في صدري، إلى غير انتهاء
حتى تمصًّا من دماي وتلفظاني، في ارتخاءُ

فوق السرير
وتشرئباً
ثم نثوي جثتين!»

٣

دربُ كأفواه اللحود
لولا التماعات الكواكب، وانعكاس من ضياء
تلقية نافذة، ووقع خُطى تهاوى في عياء
يُصدي له الليل العميق، وحارسٌ تَعَبٌ يعود
وَسنان يحلم بالفراش وزوجه تذكي السراج
وتؤجج التَّنور صامتةً وأخيلةً اللهب
تضفي عليها ما تشاء من اكتئابٍ وابتهاج
ثم اضمحلَّ الحارس المكدود، والنغم الرتيبُ
وقع الخطى المتلاشيات ... كأنه الهمس المريب
ما زال يخفق من بعيد
وتملمت قدمان، وارتفعت يدٌ بعد انتظار
وهوت على الباب العتيق، فأرسل الخشب البليدُ
صوتاً كإيقاع المعاول حين إدبار النهار
بين القبور الموحشات. وأطبق الصمت الثقيلُ
وأطل من إحدى النوافذ، وهي تفتح وارتيابُ
وجهٌ حزين ثم غاب!
وتحرَّك الباب المُضغَضُ وهو يجهد بالعويل
وتقول أنتى في اكتئاب:
«ضيفٌ جديد!» ثم تفرك مقلتيها في فتور
ويظل يزحف كالكسوف يحجَّب الألق الضئيلُ
عن وجهها، ظلُّ يقيدها بحفار القبور!

في زهوة الشفق الملون حيث يحترق النهار
في عودة الرُّعْيَانِ أشباحًا يظللها الغبار
في ساعة الشوق الكئيب إلى شواطئ كالضباب
وإلى أكفٍّ مُخْلِصَاتٍ

وإلى أغانٍ مبهماتٍ هائماتٍ في شعاب
أنأى من الأصداء تغشاهما نجومٌ ساهماتٌ
في ساعة الشفق الملون كان إنسانٌ يثور
بين الجنادل والقبور
نفسٌ معذبةٌ تثور

بين الجنادل والقبور:

أأظُلُّ أحلم بالنعوش، وأنفض الدرب البعيدُ
بالنظرة الشزراء، واليأس المظلل بالرجاء
يطفو ويرسب، والسماء كأنها صنمٌ بليدٌ
لا مأمل في مقلتيه ... ولا شواظ ولا رثاء؟
لو أنها انفجرت تقهقهه بالرعود القاصفات!
لو أنها انكشمت وصاحت كالذئاب العاويات
فات الأوان، فخط لَحْدَكَ واثو فيه إلى النشور!
لو أنها انطبقت عليّ كأنها فَمٌ أفعوان!
لو أنها اعتصرت قواي!

ومات ظل الأرجوان

في آخر الأفق البعيد، ولألت قطرات نور
مما تبعثره المدينة وهي تبسم في فتور
وكأنما رضعت مصابيح المدينة مقلتاه
فَسَرَتْ لهيبًا في دماها وألغمتها بالرغاب
وكأنهن، على المدى المقرور، آلاف الشِّفَاهُ
تدعوه ظمأى، لاهثاتٍ ... مثل أحداق الذئاب:
«ما زلت تحترقين من فرح، وأحترق انتظارًا»

صُبِّي سناك على التراب
وعلى الكئوس الفارغات، وبعثريه على كتاب
أو بين أغطية الموائد وهي تنتظر النهارا
ظَلَّتْ تعابثها شفاه الريح، وانصرف السكارى!
راحوا إليها مسرعين، إلى التي ارتعشت قواها
بين التوجُّع والذهول، على يديّ وفي دمائي
ليلٌ وأعقبه الصباح ونبأتني مقلتها
أنا انتهينا
يا سماء، ويا قبور ... أما أراها؟
لا بد من هذا!« وصوب مقلتيه إلى السماء
حنقا يزمجر، ثم أطرق وهو يحلم باللقاء
بابٌ تَفْتَحُ في الظلام ... وضحكة ... وشذى ثقيل ...
ويدان تجتذبان أغطية السرير وترخيان
إحدى الستائر
ثم تنطفئان في الضوء الضئيل!
وتغيم أخيلة وتجلي، ثم تبرز حلمتان
ويُطل وجهٌ شاحب القسمات مختلج الشفاه
وتغيم أخيلة وتُجلى، ثم تفتح مقلتها
فيرى القبور
ويرى المصابيح البعيدة كالمجامر في اتقاد
ويرى الطريق إلى القبور
يكتظ بالأشباح زاحفةً إليه على اتقاد
فيصيح من فرح: «سألهاها، فإن على الطريق
نعشًا وإن حف النساء به وأملق حاملوه!
إنني سألقاها!» وينهض وهو يرفع باليمين
فانوسه الصدئ العتيق
يلقي سناه على الوجوه
وعلى الدثار القرمزي وفي عيون القادمين

أنشودة المطر

لو أنه اخترق الدثار بمقلتيه وبالضياء
لو حدث التابوت عنم فيه ... أو رفعت يداها
أو هبّةً للزعزاع النكباء حاشية الغطاء
تحت النجوم الساهمات
لكاد ينكر من رآها!

ماتت كمن ماتوا، وواراها كما وارى سواها
واسترجعت كفاه من يدها المحطمة الدفينه
ما كان أعطاها، وإن حملت يد امرأة سواها
تلك النقود بل البقايا من نفايات المدينه

* * *

وتظل أنوار المدينة وهي تلمع من بعيد
ويظل حفار القبور
ينأى عن القبر الجديد
متعثر الخطوات يحلم باللقاء، وبالخمور!

الأسلحة والأطفال

١

عصافير؟ أم صبية تمرح
عليها سنًا من غدٍ يلمح؟
وأقدامها العارية
محارٌ يصلصل في ساقية
لأذيالهم زفة الشمأل
سرت عبر حقلٍ من السنبل
وهسهسة الخبز في يوم عيد
وغمغمة الأم باسم الوليد
تناغيه في يومه الأول

* * *

كأنني أسمع خفق القلوغ
وتصخاب بحارة السندباد
رأى كنزه الضخم بين الضلوع
فما اختار إله كنزًا وعاد!

* * *

صدى عابِرٍ من وراء العصور
من الكهف، والغاب، والمعبد
سرى دافئًا من عروق الصخور

وإزميل نحاتها المجد
يغني بأشواقه العاتية
إلينا إلى القمة العالیه
إلى أن يفل الردى بالحياه
وتلقاه أجيالها الآتیه
على صخره حملتها يداه
تحاياه في بسمه في الشفاء
وفي أعين حجرت مقلتاها
عليها دموعهما الجاريه

* * *

صدى رجعته الأكف الصغار
يصفّقن في الشارع المشرق
كخفق الفراشات مر النهار
عليها بفانوسه الأزرق

* * *

وكم من أب آيب في المساء
إلى الدار من سعيه الباكر
وقد زم من ناظريه العناء
وغشّاهما بالدم الخاثر
تلقاه، في الباب، طفلُ شرود
يكركر بالضحكة الصافيه
فتنهّلُ سمحاء ملء الوجود
وتزرع آفاقه الداجيه
نجومًا، وتنسيه عبء القيود

* * *

وهم في ليالي الشتاء الطوال
ربيعُ من الدفاء والعافيه
تلم العجائز فيه الورود

ويلمحن عهد الصبا ثانيه
ويرقصن بين التلال
يرجحن أرجوحة في الخيال
بعذراء في ليلة مقمره
وفي ظل تفاحة مزهره
تنام العصافير فيها
وهم في الصباح
خطى خافقات على السلم
وأيد على أوجه النوم
يدغدغنها في مزاح!
وأغنية من أغاني الطريق
بلحن سوى لحنها الأول
وشأو من الصوت مستعجل
وهم رفقة الأم إذ تستفيق
وإذ تشعل النار في الموقد
كخيطة ترى فيه بدء الغدا!

٢

عصافير؟ أم صبية تمرح؟
أم الماء من صخرة ينضح
فيخضل عشب وتندى زهور؟
زهور ونور
وقبرة تصدح
وتفاحة مزهره
لخفق العصافير فيها
صدى قبرة الأم تلقى بنيتها:
«دعيني فما تلك بالقبرة!»

دعيني أقلُّ إنه البلبل
وإن الذي لاح ليس الصباح.^١
أتلك السفين التي تعول
على مرفأ نأوحته الرياح؟
تلوح منها أكف الجنود
لألف ك «جوليت» فوق الرصيف:
«وداعاً وداع الذي لا يعود!»
وأمُّ كما استوحشت في الخريف
وراء الدجى، دوحة عارية
وفرت عصافيرها الشادية!

* * *

عصافير؟ أم صبية تمرح؟
أم الماء من صخرة ينضح
ولكن على جثة دامية؟
وقبرة تصدح
ولكن على خربة باليه؟
عصافير؟!
بل صبية تمرح
وأعمارها في يد الطاغية
وألحانها الحلوة الصافية
تغلغل فيها نداء بعيد:
«حديد عتي ... يق
رصا ... ص
حدي ... د»
وكالظل من باشق في الفضاء

^١ شكسبير: روميو وجوليت.

إذا اجتاح، كالمدية الماضية
عصافير تشدو على رابيه
ترامى إلى الصبية الأبرياء
نداءً تنشقت فيه الدماء:

«حديد عتيق

حديد عتيق!

رصا ... ص.» وحتى كأن الهواء

رصاص وحتى كأن الطريق

حديد عتيق

وينقض، كالمعول الحافر

صدى راعب من خطى التاجر

له الويل ماذا يريد؟

«حديد عتيق

رصا ... ص

حديدا!»

لك الويل من تاجرٍ أشأم

ومن خائضٍ في مسيل الدم

ومن جاهل أن ما يشتريه

لدرء الطوى والردى عن بنيه

قبورٌ يوارون فيها بنيه!

«حديد عتيق

رصا ... ص

حديد ...»

حديداً عتيقاً لموتٍ جديد!

حديد ... د»

لمن كل هذا الحديد!
لقيدٍ سيُلوى على معصم
ونصلٍ على حلمةٍ أو وريد
وقفلٍ على الباب دون العبيد
وناعورةٍ لاغتراف الدم
«رصاصا ... ص»

لمن كل هذا الرصاص؟
لأطفال كوريَّة البائسين
وعمال مرسيليا الجائعين
وأبناء بغدادَ والآخريين
إذا ما أرادوا الخلاص

حديد

رصاص

رصاص

رصاص!

«حديد ...»

وأصغي إلى التاجر
وأصغي إلى الصبية الضاحكين
وكالنصل قبل انتباه الطعين
وكالبرق، ينفض في خاطري
ستار، وكالجرح إذ ينزف
أرى الفوهات التي تقصف
تسد المدى، واللظى، والدماء
وينهلُّ كالغيث، ملء الفضاء
رصاص ونار ووجه السماء
عبوسٌ لما اصطك فيه الحديد

حديدٌ ونار، حديدٌ ونار
وثم ارتطام، وثم انفجار
ورعدٌ قريب، ورعدٌ بعيد
وأشلاء قتلى، وأنقاض دار!
حديدٌ عتيق لغزوٍ جديد
حديد ليندك هذا الجدار
بما خط في جانبيه الصغار
وما استودعوا من أمان كبار
«سلام»

كأن السنا في الحروف
تخطى إليها ظلام الكهوف
بآمال إنسانها الأول
وما اختط من صورةٍ في الحجار
تحدى بها الموت فهي انتصار
وتوقُّ إلى العالم الأفضل؟
«حديد»

رصاصا ... ص
حديدٌ عتيق
رصاصٌ ...» ليخلو هذا الطريق
من الضحكة النيرة الصافية
وخفق الخطى والهتاف الطروب
فمن يملأ الدار عند الغروب
بدفء الضحى واخضلال السهوب؟
لظى الحقد في مقلة الطاغية
ورمضاء أنفاسه الباقية
يطوفان بالدار عند الغروب
وأطلالها البالية!
«حديدٌ عتيق»

نحاسٌ عتيقُ
وأصداءُ صفارةٍ للحريق!

٤

«حديد، حديد»
وأُمَّ تبيع السرير العتيق
تبيع الحديد الذي أمس كان
مهاذًا عليه التقى عاشقان
وشد نداء الحياة العميق
ذراعًا بأخرى، فما تخفقان!
فيا حسرتا حين يمسي غدا
شظايا تدوي وبعض المدى
تُنحَى بها عن ذراع ذراع
وينهد مهدٌ، ويخبو شعاع!

* * *

أمن حيث كان التقاء الشفاهُ
على الحب ينسجن خيط الحياهُ
يحوك الردى غزله الأسودا
دمًا أو دخانًا؟ يحوك الردى
شباكًا من النار حول البيوت
على صبيةٍ أو صبايا تموت؟
ويرتد حتى حديد السرير
جناحًا عليه المنايا تُغير
وحتى الذي في عيون الدمى
من المعدن الزئبقي الحسير
رصاصًا أبح الصدى مُرزمًا

«حديداً، عتيقاً، حديداً، حديد»
وأقدامها العارية
محاراً يصلصل في ساقيه
ويعتاد بالي، كرعدي بعيد
ضجيج الخطى وانهبان الصخور
وخفق الفوانيس في المنجم
وما نض من عاريات الظهر
وما انسح في سعة من دم!
وملء السنن من غبار الحديد
نواقيس فيها يرئ السكون ...
وأجراس مركبة من بعيد
يخف لها صبية يلعبون
نواقيس في الفجر، واليوم عيد
وفي الماء أطلال جسر جديد
وهمس النواعير، والزارعون
وفي كل حقل، كنبض الحياه
تهز المحارث قلب الثرى
وتبني القرى
قرى طينها من رميم الطغاه
وتخضل حتى الصخور الضنيئه
ويثمر حتى سراب الفلاه
مدينه
فأخرى، فأخرى، إلى منتهاه!

* * *

«حديد حديد!»
وأقدامها العارية
وخفق الفوانيس في المنجم

وأعماقه الرطبة الداجية
كظل الردى، فاغرات الفم
كبئراً من الظلمة الطامية
ستمتاح منها ألوف القبور
ويهوي، من الزعزع العاتية
عمى من دجاها على كل نور
على النور من باب كوخ مضاء
ومن كوة في خيام الرعاء
ومن شرفة ظلها الياسمين:
«دعيني أقل إنه البلبل
وإن الذي لاح ليس الصباح»
على النور من موقد السامرين
ومن مدرجٍ بالسنا يُغسل
على كل نور، تذر الرياح
ظلال الطواغيت في المنجم
كناعورة لاغتراف الدم
تذر الرياح، الرياح، الرياح
أراجيح في الملعب المظلم
وخفق الفوانيس والأنجم
وخفق الخطى والأكف الصغار
وخفق الفراشات مر النهار
عليها بفانوسه المعتم
فمن يملأ الدار عند الغروب
بدفء الضحى واخضلال السهوب؟
رصاص، حديد، رصاص، حديد
وأهات تكلى، وطفلٌ شريد!

* * *

ومن يفهم الأرض أن الصغار

يضيقون بالحفرة الباردة؟^٢
إذا استنزلوها وشط المزار
فمن يتبع الغيمة الشاردة؟
ويلهو بلقط المحار؟
ويعدو على ضفة الجدول؟
ويسطو على العش والبلبل؟
ومن يتهجد طوال النهار
ومن يلثغ الرء في المكتب؟
ومن يرتمي فوق صدر الأب
إذا عاد من كده المتعب؟
ومن يؤنس الأم في كل دار؟
أسى موجع أن يموت الصغار
أسى ذقت منه الدموع، الدموع
أجاجاً ومثل اللظى في الفم
وأحسست فيه اشتعال الدم
بعيني، من نازفات الضلوع
عويل من القرية النائيه
وشيخ ينادي فتاه الغريق
بهذا الطريق وذاك الطريق
ويسعى إلى الضفة الخاليه
يسائل عنه المياه
ويصرخ بالنهر ... يدعو فتاه
ومصباحه الشاحب
يغني سدى زيته الناضب
«محال تراه!»

^٢ إيديث سيتويل في قصيدتها أم ترثي طفلها: «إن الأرض عجوز شاخت حتى لا تعلم بأن الصغار
حركون كظلال الربيع.»

ويحنو على الصفحة القاتمهُ
يحدق في لهفَةٍ عارمهُ
فما صادفت مقلتاهُ
سوى وجهه المكفهر الحزين
ترجرجه رعشة في المياهُ
تغمغم: «لا، لن تراه!»

٦

«حديّدٌ عتيقٌ» ورعبٌ جديد!
«حديّد»
رصا ... ص
لأنّ الطغاهُ
يريدون ألاّ تتمّ الحياهُ
مداها وألاّ يُحسّ العبيد
بأنّ الرغيف الذي يأكلون
أمر من العلقم
وأنّ الشراب الذي يشربون
أجاجٌ بطعم الدم
وأنّ الحياة الحياة انعتاق
وأنّ ينكروا ما تراه العيون
فلا بيدراً في سهول العراق
ولا صبية في الضحى يلعبون
ولا همس طاحونة من بعيد
ولا يطرق الباب ساعي البريد
ببشرى، ولا منزل
يضيء الدجى منه نورٌ وحيد
سخي كما استضحك الجدول

ولا هدهدات، ولا جلجل
يرن بساق الوليد
وبين الربي في رقاب الجداء
ولا وسوس الشاي فوق الصلاة
ولا قصة في ليالي الشتاء
لأن الطواغيت لا يسمعون
صداح العصافير في المغرب
كما صلصل الفضة القامرون
ولا زفة السنبل المذهب
لأن الطواغيت لا يحلمون
بغير المبيعات والأسهم
وأن الطواغيت لا يسمعون
سوى رنة الفليس والدرهم
لأن الطواغيت لا يبصرون
على الشاطئ الآسيوي البعيد
سوى أن سوقًا يباع الحديد
وتُستهلك الريح والنار فيها
تدر العطايا على فاتحيها

٧

بأقدام أطفالنا العارية
يمينًا، وبالخبز والعافية
إذا لم نعفر جباه الطغاة
على هذه الأرجل الحافية
وأن لم نذوب رصاص الغزاة
حروفاً هي الأنجم الهادية
«فمنهن في كل دار كتاب

ينادي قفي واصدئي يا حراب»
وأن لم نضو القرى الداجية
ولم نخرس الفوهات الغضاب
ونُجِّل المغيرين عن آسيه
فلا ذكرتنا بغير السباب
أو اللعن أجيالنا الآتية!

* * *

سلامٌ على العالم الأرحب
على الحقل، والدار، والمكتب
على معملٍ للدمى والنسيج
على العش والطائر الأزغب
على التوت وسنانَ فيه الأريج
ووقع المجاديف في المغرب
على زهرةٍ في وساد العروس
على صبيةٍ في انتظار الأب
على شاعر تستحم الشمس
بعينيه، يصغي إلى جندب
سلامٌ على العالم الأرحب
سلام على «الكنج» فاض النعيم
ورنت أغاريد، في ضفتيه
قرى من سنًا عاصرات عليه
عناقيد من ضوئهن العظيم
سلام على الصين والحاصدين
وصياد أسماكها الأسمر
وما أنبتت من دم الثائرين
وما افتتر في البيرق الأحمر
على صبيةٍ في قراها البعاد
وفي ظل تفاحها المزهر

وما جررت في ليالي الحصاد
ثياب العذراى على البيدر
سلام لأن الربيع
يمر بودياننا كل عام
وما زال قوس الغمام
ولولا الذي كدسوا من نضار
به يستضيئون دون النهار
تجوع الملايين عن جانبيه
وينحط، في كل يوم، عليه
دُم من عروق الورى أو نثار
كذر الغبار
لما هزت الأمهات المهود
على هوة من ظلام اللحد
ولم تذرف الدمع عبر البحار
وعبر الصحارى، نساء الجنود
ولم يرفع الزارع الأشيب
إلى مقلتيه، اليد الراجفه
يحدق في عتمة العاصفه
ويصغي وفي روعه «القاصفه»
ولم يبك صرعى بنيه الأب
جزوعًا بأن يثكل الآخريين
ولا شردت نومة العاشقين
كوابيس من أعين الهالكين
وإرنان صفارة تنعب
«وغى ...» فاستفاقوا ولا كوكب
ولا لمعة من سراج تيين
سوى قعقعات السلاح
وعصف الرياح

ولا ساءل الأم طفل غرير:
«ألا بلدة ليس فيها سماء؟»
فلا قاذفات المنايا تُغِير
ولا من شظايا تسد الفضاء
ولا اختض في الصرصر اللاجئون
ولألاء «يافا» تراه العيون
وقد حال من دونه الغاصبون
بما أشرعوا من عطاش الحراب
وما استأجروا من شهودٍ كَذَاب
وما صفحوا بالردى من حصون
سلامٌ على العالم الأرحب
على مشرق منه أو مغرب
سلامٌ لآفون^٣ روى عروق
شكسبير والزهر والداليه
أفقُ شاعر النور، إن الشروق
تهده غيمة داجية
سعى «مكبث»^٤ تحتها في احتراس
لقتل النعاس
لقتل النعاس البريء
سلام لباريس «روبسيير»^٥
و«إلوار» والغابة الحالمه
وعشاقها في المساء الأخير
تذريهم قوة ظالمه

^٣ آفون نهر في بريطانيا، يمر بقرية شكسبير.

^٤ مكبث بطل إحدى مسرحيات شكسبير، وقد قتل دنكان وهو نائم في ضيافته مطمئن إليه: «لقد قتل مكبث النعاس، النعاس البريء.» شكسبير.

^٥ روبسيير: بطل الثورة الفرنسية، وإلوار الشاعر الفرنسي الحر العظيم.

كدوامة من رياح السعير
على «تونس» من لظاها ظلال
وحول «الرباط»^٦ المدمى هدير
وفي جيرة الصين حل انخزال
بقطعانها الفضة الضارية
لك المجد يا آسيه!
سلام لفينيس^٧ والكرنفال
وأضوائه الثرة الزاهيه
وهمس المحبين بين الظلال
وفي دفء قمرائه الضاحيه

٨

عصافير؟ أم صبية تمرح؟
أم الماء من صخرة ينضح؟
وأقدامها العارية
مصاييح ملء الدجى تلمح
هتكنا بها مكنم الطاغية
وظلماء أو جاره البالية
علينا لها أنها الباقية
وأن الدواليب في كل عيد
سترقى بها الريح ... جذلى، تدور!
ونرقى بها من ظلام العصور
إلى عالم كل ما فيه نور
«رصاص، رصاص، رصاص، حديد

^٦ الرباط مدينة في مراکش.

^٧ فينيس: مدينة البندقية بإيطاليا.

أنشودة المطر

حديد عتيق»
لكونٍ جديد!